معهد البحوث والدراسات العربية

اللغة والتطور

تأليف

دكتور عبد الرحمن أيوب

[قسم البحوث والدراسات الأدبية واللغوية]

١٩٦٩

اللغة والتطور

مطبعة الكيلاني

٢٨ شارع البستان ـ ت ٥٠٩٧٢

٢٢ شارع مهط الصحة ـ ت ٩١٨٥٩٨

المحتويات

صفحة

كلمة المؤلف 7

أولا — تطور الفكر اللغوى . . . . . . ٩ — ٣٤

أفلاطون وأرسطو . القياسيون والشذوذيون . الهنود . العصور الوسطى وعصر النهضة . مدرسة بورت رويال . القرون ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ وأهم ملامح الفكر اللغوى فيها . أصل اللغة . أسباب التطور اللغوى .

ثانيا — المذاهب الفكرية والتطور . . . . ٣٥ — ١٢١

المذهب الروحى .

المذهب الطبيعى والداروينية .

ليل وشليخر ومراحل نمو اللغة . المذهب النفسى . شتينتال وباول . نشأة الأفكار . الربط المباشر وغير المباشر . اللغة نظام رمزى . مجموعات الأفكار ومجموعات الألفاظ . كيف يتم التطور .

المذهب الاجتماعى

دى سوسير . موقفه من الدراسة المقارنة . القيمة . ما هى اللغة . العلاقات المتعاقبة والمتعاصرة . الاختلاف المكانى . الوصفية والمعيارية . التطور عند دى سوسير العوامل النفسية والتطور . العوامل الاجتماعية والتطور

المذهب الشكلى

نظرية التوازن . ا . ج . فيرث — ل . بلوم فيلد . قضايا وتعريفات .

صفحة

ثالثا — النفى فى العربية . . . . ١٢٢—١٤٤

الشكل والمضمون ودلالة المستويات . النفى فى العربية الفصحى . النفى فى اللهجة المصرية . النفى فى اللهجة العراقية . النفى فى اللهجة السورية . النفى فى اللهجة الأردنية . النفى فى اللهجة السودانية . خلاصة .

استدراك

ص	س	خطأ	صواب
١٢٥	٧	المعبرة عن النحوية فى هذه الدلالات	المعبرة عن هذه الدلالات النحوية
١٣٦	٥	« لا ماكلين أو شاربين »	« لا ماكلين ولا شاربين »

كلمة للمؤلف

تكرم السيد الأستاذ رئيس قسم البحوث والدراسات الأدبية واللغوية ومدير المعهد بدعوتى لإلقاء عدد من المحاضرات فى موضوع اللغة والتطور. ولما كان هذا الموضوع يعتمد أساسا على تتبع تيار الفكر الفلسفى العام فقد آثرت أن أستقصى فكرة التطور منذ أقدم العصور حتى عصرنا الحديث، وأن أبين انعكاس هذه الفكرة فى مختلف العصور على التفكير اللغوى.

وقد حرصت دائماً على أن أترجم الفكر الفلسفى المجرد إلى عمل تطبيقى أجريته على العربية أو إحدى لهجاتها. وفى يقينى أن الدراسة اللغوية الحديثة لابد أن تتخذ مجالها فى نطاق ثقافتنا اللغوية، وأنه ينبغى حين ننقل عن المفكرين غير العرب ألا ننقل أفكارهم فى إطار أمثلة من لغاتهم الأجنبية، وذلك لأن المثال يلقى بظلاله دائماً على الفكرة. ومن ثم فإن الفكرة حين تقدم فى إطار من أمثلة فرنسية أو إنجليزية تختلف نوعاً من الاختلاف حين تقدم فى إطار أمثلة عربية.

كما أننا أولا وأخيراً نريد أن نحدث تطوراً فكرياً عربياً ولا بد لتحقيق هذا من أن نبدأ بمشاكلنا اللغوية. ونرجو الله أن يمهد لنا السبيل للمساهمة فى تطوير هذه الثقافة اللغوية التى كانت إحدى الأسس فى بناء ثقافة فى هذا الجزء الهام من العالم.

عبد الرحمن أيوب
أستاذ بدار العلوم

تطور التفكير اللغوى

يتطلب الحديث عن اللغة والتطور كما هو واضح من عنوانه علاج أمرين أولهما اللغة وثانيهما التطور ، ثم الحديث عن وجود علاقة بينهما إيجاباً أو سلباً . أما اللغة فهى التى تميز الإنسان عن الحيوان كما أنها الوسيلة لقضاء كل ما يحتاج إليه الإنسان ولنقل خبراته وتراثه العقلى من جيل إلى جيل - ولكنها مع هذه الأهمية أمر من أمور الحياة اليومية التى لا تثير رغم أهميتها التأمل أو التساؤل ،مثلها فى هذا مثل ظاهرة النوم أو المشى أو سواهما من وجوه النشاط البشرى اليومى .

وأما التغير — وهو أبسط معنى من معانى التطور — فقد كان بلاشك محل ملاحظة الإنسان ، فالنبات يتغير والوقت يتغير والإنسان ذاته يتغير. بل إن الحياة والموت ، وهما مظهران من مظاهر التغير ، قد كانا محل تأمل الإنسان البدائى الذى عزاهما إلى فعل القوى الخارقة .

ومثل هذا النوع من التأمل البدائى ليس كبير القيمة فى تاريخ الفكر الإنسانى. وذلك لأن عصور التقدم العقلى لم تقنع لقبول الأمور على عواهنها أو بتفسيرها تفسيراً لا يتخذ مظهراً متناسقاً ، ويمكن القول بأن فكرة الألوهية كانت مرحلة جادة فى تاريخ الفكر الإنسانى . وقد عزى إليها نشأة الأشياء بما فيها اللغة ، كما عزى إليها كل ما يعتور الأشياء من تغير . وعن فكرة الألوهية تولد نوع من التفكير المنظم الذى عرف بالفلسفة . وقد عالجت بدورها مشاكل الكون على نحو خاص سوغ القول بوجود نوعين من التفكير ، التفكير الدينى - وهو يقوم أساساً على التسليم بوجود قوة عليا ،هى التى منحت الحياة ،وهى التى تقوم على مايجرى فيها من أحداث وتغيرات - والتفكير المادى وهو يعتمد أساساً على افتراض نظريات تفسر

الحياة والأحداث . وقد ظل الفكر الإنسانى يتأرجح بين هذين النوعين من التفكير ، الروحى والمادى ، فلم يكد أحدهما يسيطر على الموقف فترة ماحتى تبرز النزعة المضادة فى صورة مذهب جديد .

وقد كان للتفكير اللغوى من هذا الاتجاه وذاك نصيب .

ومن هنا نجد الكتب المقدسة تتحدث عن الكلمة فيقول الإنجيل بأنه فى الأصل « كانت الكلمة وكانت الكلمة هى الله » كما يروى سفر التكوين قصة الخلق فيقرر بأن الله قد خلق الحيوان من الأرض وخلق الطير من الهواء وجاء بها إلى آدم ليرى كيف يسميها ، وكان ما أطلق آدم على الحيوان والطير أسماء لها . كذلك يقول القرآن ، «وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لاعلم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم » .

وقد تميز آدم باللغة حتى على الملائكة الذين أمرهم الله بالسجود له ، بعد أن عجزوا عن إدراك معانى الأسماء التى عرفها الله لآدم .

وقد تطور أفلاطون بهذه النزعة الروحية فى تفسير نشأة اللغة فخطا بها خطوة جعلتها أقرب إلى روح العلم من النزعة الأولى . وهو يسلم بادىء ذى بدء بأن اللغة إلهام وموهبة إنسانية نشأت مع الإنسان ، ويرى أن البحث ينبغى أن يدور حول الألفاظ الأولى فى اللغات المختلفة ، لأنها هى التى تمثل هذه الموهبة الفطرية فى أكثر أطوارها بكوراً . ويدرك أفلاطون صعوبة المحاولة ويقرر أن السبيل إليها هو معرفة لغات الشعوب الأخرى ، وهو أمر لم يكن لدى الأغريق وسيلة كافية للوصول إليه .

أما أرسطو فقد مثل النزعة الأخرى حين اتجه بالدراسة اللغوية اتجاهاً مختلفاً عن اتجاه أفلاطون ، فقال بأن اللغة ليست إلهاماً إلهيا أو موهبة إنسانية ، وإنما هى نظام لفظى محدد نشأ نتيجة اتفاق بين أفراد جماعة بعينها. ولم يقف أرسطو عند مجرد القول بذلك ، بل أخذ فى دراسة هذا النظام

اللفظى فقسم الألفاظ إلى أسماء ، وأفعال ، وحروف ، وتحدث عن الحالات الإعرابية والتذكير والتأنيث والأسماء البسيطة والمركبة .

وقد نتج عن هـذا الخلاف بين أفلاطون وأرسطو نشوء مدرستين إحداهما تتبع أفلاطون وقد عرفت باسم مدرسة الشذوذيين **anomalists** ويتزعمها كراتيس Krates (من مالوس Malios) الذى عاش حوالى سنة ١٢٠ قبل الميلاد ، ومدرسة القياسين **analogists** ويتزعمها الرياضى ارستراخوس Aristrachos الذى عاش فى الإسكندرية فى القرن الثانى أو الثالث قبل الميلاد . ويرى الشذوذيون أن اللغة فطرة إنسانية لا تتبع قواعد أو قوانين مضطردة . وقد حاول كراتيس إثبات ذلك فألف كتابا بين فيه كيف أن اللغة تتميز بعدم الاضطراد إلى درجة يتعذر معها القول بأنها تخضع لقوانين أو نظم . ولكن هذا الكتاب قد ضاع بين ما ضاع من تراث هذا العصر المبكر . وقد كان فى هـذا الكتاب يعارض زعيم مدرسة القياسيين ارستارخوس .

أما مدرسة القياسيين التى كان يتزعمها ارستار خوس الرومانى ، فقد رأى ما رأى أرسطو من أن اللغة نظام وضعى ، وأنها بهذا تخضع لقوانين ثابتة . وكانت هذه القوانين عندهم قريبة بما نسميه اليوم بالقوانين الصوتية .

وقد ظلت نتائج هذا الخلاف بين أفلاطون وأرسطو عهداً طويلا ، فتبعت الأول منهما طائفة الرواقيين بينما تبعت الثانى طائفة الأبيقوريين .

وقد اهتم الرواقيون بدراسة قواعد اللغة وبرز من بينهم خريسيبوس **Chrypsippos** الذى ألف مؤلفات عديدة فى اللغة وفلسفتها لم يبق منها إلا آثار متناثرة . وبالرغم من اختلاف الرواقيين مع فلسفة أرسطو ، فإنهم قد بنوا على أساس آرائه فى قواعد اللغة كل أعمالهم فى هذا الميدان ، فعينوا

الحالات الإعرابية المختلفة التى قال بهـا أرسطو ووضعوا لكل منهـا اسما لايزال يستعمل حتى اليوم كما اهتموا اهتماما خاصا بدراسه الأفعال .

وقد كان من الواضح فى كل ما كتبوه أنهم يخلطون الفلسفة بالقواعد اللغوية كما نشاهد الآن فى قواعد النحو العربى على سبيل المثال .

وفى الاسكندرية نمت هـذه النبتة الرواقية وآتت أطيب ثمارها على يد ابولونيوس ديسكولوس Apollonios Dyskolos الذى عالج كل ما عرف فى عصره من مشاكل اللغة ووضع أساس علم النحو الإغريقى . وقد اهتم فى كل ما كتب باللهجات الأدبية وحدها ، ولـكن معظم ما كتب مع الأسف قد ضاع مع الزمن . أما العمل اللغوى الوحيد الذى بقى كاملا من كل أعمال هذا العصر فهو كتاب ديونسيوس تراكس Dionysios Thrax الذى عاش فى القرن الثانى قبل الميلاد ، وهو كتاب صغير فى نحو اللغة الإغريقية ، ترجم إلى الأرمنية والسوريانية . ونحن نرجح أن يـكون قـد وصل إلى يد العرب ، فالمعروف أنهم قد نقلوا الثقافة الإغريقية عن طريق اللغـة السوريانية ، وقد يـكون هـذا هو السر فى الشبه الـكبير بين آراء العرب النحوية والآراء الفلسفية الإغريقية [1] .

* * *

تعود إلى موضوع التغير ، وقـد اتخذه الفـكر الأغريقى المبـكر مجالا للتأمل والنظر . ولقد قرر هيراكليتوس Heraclitus أن كل شىء فى حالة تغير دائم وشبه الموجودات بلهب النار لا يوجد إلا على أساس هلاك شىء آخر . وقال بأن هناك أصلا مشتركا للأشياء كلها ولـكن الاختلاف بينها ينشأ عن امتزاج الأضداد [2] بنسب مختلفة فتـكون منها أشياء متفاوتة .

---

(١) أنظر كتابنا « دراسات نقـدية فى النحو العربى مكتبة الانجلو بالقاهرة ١٩٥٧ وقد استقينا ماذكرنا من معلومات من كتاب Gray' s Foundation of Language طبعة نيويورك سنة ١٩٣٩

(٢) انظر History of Western Philosophy, B. Rnssell. p p. 59-60 Lonodon 1948.

وعلى يد بارمينيدس Parmenidis ارتبطت قضية التغير باللغة . وقد عارض فكرة امتزاج الأضداد التى قال بها هيركايتوس بحجة عدم وجود الأضداد ، فلو قلنا « صبر » و « عدم صبر » فإن الموجود منهما هو الأول فقط . وكذلك قال بأننا حين نستعمل اسما فلا بد أن يكون لهذا الاسم مدلول خارجى بجانب اللفظ ذاته . وعلى هذا فلو فرض أننا نقول « محمد » فإن هذا يعنى بالضرورة وجود ذات تشير إليها هذه الأصوات . ولكن هذه الذات قد تموت ، ومع هذا فإننا نظل نقول هذا اللفظ « محمد » . وما دام اللفظ يشير إلى موجود خارجى بالضرورة فإنه من المحتم القول بأن هذه الذات لا تزال موجودة ، أما ما نشعر به من انعدام هذه الذات فإنه من خداع الحواس .

والواقع أن القضية التى أثارها بارمينيدس — والتى تذكرنا بنظرية المثل الافلاطونية — ليست قضية وجود أو عدم بمقدار ماهى قضية لغوية ، أى قضية الكلمة والمدلول ، إذ أن حقيقة المشكلة التى أثارها يمكن أن تتلخص فى أنه يرى أن للكلمات مدلولا ثابتا . هذا المدلول الثابت قد يحدد بوضوح فى القاموس . ولكن الاستعمال الواقعى يجعل هذا المدلول الثابت مختلفاً من شخص لآخر . وذلك مثل كلمة « أنا » ، ومدلولها الثابت معروف . ومع هذا فإن الشخص الذى تشير إليه عندما أنطق بها يختلف عن الشخص تشير إليه عندما تنطق أنت بها . كما أن كلمة « محمد » ذات معنى ثابت ولكنها فى وقت معين تدل على ذات معينة وفى وقت ثان تدل على مجموعة من العظام والتراب كانت يوما ما هذه الذات .

معنى هذا يعنى أن مدلول اللفظ يتغير دائماً ، ولكنه تغير خفى لأن مدلول العبارة كلها لا يختلف صدقا وكذبا بهذا الاختلاف فى مدلول اللفظ ، فمدلول «أنا قائم» فى عمومها يتصف بالصدق سواء كان الناطق بها (محمداً) أو (علياً) ومدلول (محمد رسول الله) صادق فى جملته سواء قيلت هذه الجملة فى حياته أو بعد مماته .

وهكذا نرى أن فلاسفة الإغريق منذ أقدم العصور قد انقسموا إلى فريقين ، فريق يقول بتعدد العناصر واختلاف الموجودات أو تغيرها باختلاف نسب الامتزاج بينها . وهؤلاء هم أصحاب مذهب (التعـــدد) polygenisis ، وفريق يقول بوحدة العنصر الأول للوجود وهؤلاء هم أصحاب مذهب (التوحيد) monogenisis . وقد ظل الفكر الإغريقى يتردد بين هؤلاء وأولئك ، ولكن المهم أن فكرة التغير كما نرى كانت ماثلة فى أذهان كلا الفريقين رغم التفسير الفلسفى المختلف الذى يقدمه كل فريق لها .

* * *

لم يكن هذا الاتجاه الإغريقى يمثل كل تراث العالم القديم فى التفكير اللغوى ، فقد أخذ الهنود من هذه الدراسة بجانب ، ولكنهم لم يتورطوا كما تورط الإغريق فى التأملات الفلسفية حول اللغة ونشأتها من ناحية، ولم يسر تفكيرهم اللغوى على طريق قد عبدته الفلسفة من ناحية أخرى . ومن ثم فقد خلت دراستهم اللغوية من التأويلات والتعليلات ومن فرض الأفكار الفلسفية على الأنواع النحوية .

ولعل أقدم ما وصلنا من أعمال الهنود فى اللغة كتاب تاسكا الذى عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد واسمه (نيروكتا) أى التفسير ، وهو تفسير لبعض المفردات الغامضة التى تضمنتها النصوص المقدسة .

ولكن العمل التاريخى الذى بقى من أعمال الهنود هو كتاب ألفه (بانينى) بعد ذلك بما يزيد عن قرن ونصف من الزمان وسماه (سوزا) أى الرموز . وقد شرحه باتانيالى الذى عاش فى القرن الثانى قبل الميلاد شرحا مفصلا ، فكان الكتاب وشرحه أروع بحث لغوى موضوعى فى العالم القديم . وقد اشتمل هذا العمل على شرح مفصل للنظام الصوتى للغة بما فى ذلك نظام النبر stress وللنظام الصرفى morphology ، ولكنه لم يتعرض لتركيب الجملة (النحو) .

ومن ثم يمكن القول بأن الهنود قد اتجهوا اتجاهاً تحليلياً وصفياً بينما اتجه الأغريق اتجاها تأمليا فلسفيا.

ورغم هذا الاختلاف فقد حصر الهنود كما حصر الإغريق جهودهم فى دراسة اللهجات الأدبية ، وأغفلوا دراسة اللهجات الدارجة ومقارنة اللغات بعضها ببعض ، وهذا كما سترى أهم ما يميز الدراسة اللغوية فى عصرنا الحديث .

* * *

اضمحلت الثقافة الإغريقية فى أوربا وساد هذا الجزء من العالم عصور مظلمة ، ولكن شمس المعرفة كانت قد أشرقت فى زاوية أخرى من زوايا العالم هى البلاد العربية ، التى لم تكد تحمل مشعل الدعوة للإسلام حتى اتصلت بثقافة الشعوب المجاورة وأخذت معارفها .

وفى مصر كانت مدرسة الاسكندرية أكبر مركز للثقافة الإغريقية . وعلى الجانب الآخر من جزيرة العرب كان يوجد مركز آخر من مراكز الاتصال بالإغريق ، فقد كان الفينيقيون شعباً من البحارة قوى الصلة بالإغريق والرومان .

وهكذا تيسرت للعرب الصلة بالإغريق ولم يمض غير زمن وجيز حتى نضجت الحركة الفكرية التى أشعل الإسلام جذوتها فترجموا معارفهم إلى العربية التى أصبحت الواسطة فى نقل تراث العقل الإغريقى إلى العالم الغربى .

ومع أن العرب قد اتصلوا بالهنود اتصالا وثيقا ، فإن التفكير اللغوى الهندى لم يؤثر عليهم كما أثر التفكير الإغريقى(١) . ومن هنا انطبعت

---

(١) من رأينا أن التأثير الهندى ظاهر فى كتاب سيبويه . راجع مقالنا المنشور فى مجلة المجمع اللغوى بالقاهرة ، الجزء ٢٤ لعام ١٩٦٩ .

الدراسات اللغوية العربية بطابع من أفكار الإغريق ودراساتهم التى يغلب عليها طابع الفلسفة ، ولم تكتسب طابع الموضوعية والوصفية الذى يميز الدراسة اللغوية عند الهنود .

أما فى أوربا ، فقد ازدهرت المسيحية وتحمست جماهير الشعب للتبشير بها ، فكتبت تعاليم الدين الجديد بعدد من اللغات ، وترجم إليها الإنجيل . وامتدت آثار الأفكار الإغريقية إلى اللغة فانقسم الباحثون فيها إلى طائفتين : طائفة الكنسيين ، وطائفة المدرسين . وعادت المناقشة مرة أخرى إلى أصل اللغات الإنسانية وهل هو واحد أو متعدد .

وقد مال الكنسيون إلى مذهب أفلاطون فقالوا بأن اللغة منحة من الله للإنسان وبأن اللغة الإنسانية كانت لغة موحدة تضم جميع الشعوب حتى سقوط برج بابل ، وافتراق أبناء نوح وأحفاده بعضهم عن بعض ، وكان عددهم اثنين وسبعين فانقسمت اللغات إلى اثنتين وسبعين لغة .

أما المدرسيون فقد قالو بما قال به أرسطو من أن اللغة ظاهرة اجتماعية تنتج عن اتفاق وتواضع ، ومن ثم رفضوا فكرة وحدة أصل اللغات الإنسانية التى قال بها الكنسيون أخذاً عن أفلاطون .

وفى القرن السادس عشر والسابع عشر قام عدد من البحارة الأوربيين برحلات اكتشفوا فيها عدداً من البلاد والشعوب ، ورجعوا إلى بلادهم وقد جمع بعضهم طائفة من مفردات اللغات التى صادفوها . فعل ذلك بيجافيتا **Pigafitta**، البحار الذى اشترك فى رحلة ماجلان حول العالم وساسيتى **Sasootti** الذى لاحظ شبه اللغة السنسكريتية باللغة الإيطالية ، وهو كشف لغوى له خطورته ، كما جمع لازيوس **Lazius** وميجسر **Mogisor** مفردات من

لغات مختلفة ساعدت على تقسيم اللغات إلى مجموعات ، وعلى ظهور عدد من المؤلفات التى تتجه هذا الاتجاه .

كذلك لقيت دراسة تاريخ الكلمات اهتماماً ملحوظاً ، ولكنها لم تبلغ من الدقة مبلغاً يذكر ، بل لقد سيطر عليها الحدس والتخمين فى أغلب الحالات. ويكفى دليلا على هذا ما قرره أحد كتاب هذا العصر من وجود انسجام بين الاشتقاق فى العبرية والكلدانية والسوريانية والإغريقية واللاتينية والفرنسية الخ، مع ما نعرفه نحن من اختلاف هذه اللغات ، فى طريقة تكوينها للمفردات. فالمجموعة السامية تشتق الكلمات من الأصول الثلاثية وفق موازين خاصة وليس كذلك الأمر بالنسبة للإغريقية أو اللاتينية أو الفرنسية. ومن ثم فإن هذا الانسجام المزعوم لا وجود له . وقد بلغ الوهم بهذا الكاتب(١) إلى درجة القول بأن السبب فى كتابة العبرية من اليمين إلى اليسار وكتابة الإغريقية من اليسار إلى اليمين هو أن مفردات الإغريقية قد أخذت عن مفردات العبرية ولكن بترتيب حروفها ترتيبا عكسيا .

وبالرغم من تفاهة ما أبدى الكاتب من آراء فلا بد لنا من أن نذكر له أن محاولته هذه قد فتحت باب التأليف فى هذا الفرع من فروع دراسة اللغة .

وفى هذه الفترة أيضاً اشترك جماعة من اللغويين الفرنسيين فى تأليف كتاب « نحو بورت رويال » Port Royal grammar وقد وصفوا عملهم بأنه دراسة منطقية فى علم النحو العام تبين أساس الكلام بطريقة واضحة طبيعية . ويعتبر هذا الكتاب أول محاولة جدية للتأليف فى علم اللغة العام .

وجاء القرن الثامن عشر فكان امتداداً للقرنين السابقين ، إذ طرق

(١) هذا الكاتب هو جيشارد Guishard فى كتابه Harmonie éirymologique des langues hébraique, choldique, syriaque, latin étc. Paris 1606.

نفس الأبواب التى طرقت فيهما ، وإن كان حظه من النشاط أكبر بكثير مما حدث فيهما .

وفى سنة ١٧١٠ كتب ليبنز بحثاً فى مجلة أكاديمية برلين، قرر فيه أن اللغات لم تنحدر كلها عن العبرية، لغة الكتاب المقدس، وأنه من الواضح أنها تنقسم إلى مجموعات تتميز كل مجموعة منها بصفات تختلف بها عن سواها من المجموعات . وقد سمى مجموعتين من هذه المجموعات، وهما المجموعة التى نعرفها اليوم باسم الهندو أوروبيـــة والمجموعة التى أطلق عليها الأورالية الألتية Ural—Altic وتشمل اللغات الفنلندية والأستونية ولغة اللاب الخ واللغات التركية والمغولية ، وبهذا كان ليبنز أول من قال بالفصائل اللغوية .

عرف ليبنز كذلك أهمية الخرائط اللغوية وضرورة ابتكار كتابة خطية عامة، وضرورة مقارنة المراحل المتأخرة للغة ما بالمراحل المتقدمة. وقد ضمن آراءه هذه فى كتاب كتبه سنة ١٧٠٤ ونشر فى باريس سنة ١٨٨٦ (٢) .

أما نشأة اللغة فقد كتب عنها عدد من الكتاب من أشهرهم روسو وسوسميلخ وهردر . وقد كان هؤلاء طائفتين ، طائفة لا تزال تصر على أن اللغة إلهام إلهى، وطائفة أخرى من المبررين الذين يحاولون تأويل الآثار الدينية لتتفق مع الاتجاه الجديد الذى تدعو إليه . ومثال هذا تردد روسو فى رسالته التى كتبها عن أصل اللغة بين القول أنها إلهام إلهى وبين القول أنها أمر إنسانى إتفاقى . فهو يقول مثلا « تكلم آدم فقد علمه الله نفسه كيف يتكلم . . . ومن اليسير أن نوفق بين ما جاء به الكتاب المقدس وما نعرف من نصوص لغوية قديمة . وبهذه الطريقة لا نقول بأن ما جاء فى الكتاب المقدس لا بد وأن يكون نوعاً من القصص » .

وقد تصدى هردر لسوسميلخ وقرر فساد نظرية الإلهام الإلهى التى جدد

---

(١) Nouveaux essais sur lintendenment humain.

الأخير الدعوة إليها . وقال بضرورة المعرفة الواسعة بمختلف لغات العالم قديمها وحديثها حتى يمكن كشف القوانين اللغوية العامة .

وفى ختام هذا القرن بدأ علم اللغة المقارن على يد السير وليام جونز أحد قضاة الإنجليز فى الهند الذى لاحظ الشبه القوى بين اللغة السنسكريتية واللغة الإغريقية واللاتينية والقوطية والكلتية . وقد قرر أن مرجع هذا الشبه هو انحدار هذه اللغات جميعها عن أصل مشترك .

وفى أوائل القرن التاسع عشر اتجهت الأنظار إلى دراسة السنسكريتية . وكان من بين أعلام هذا الاتجاه الجديد فون شليجل Von Sch'egel الذى قرر فى كتاب نشره فى هيدلبرج بألمانيا سنة ١٨٠٨ أن الوسيلة الوحيدة لإثبات العلاقة بين أفراد مجموعة لغوية هى مقارنة قواعدها وتراكيبها لا مجرد جمع المفردات المشتركة بينها .

وفى سنة ١٨١٨ نشر كتاب راسموس راسك Rasmus Rask الدنماركى « بحث فى أصل اللغة الأيسلندية القديمة » . وفيه حدد المؤلف اللغات التى تكون المجموعة المسماة باللغات الهندو أوروبية ودرسها دراسة مقارنة وتعرض للقوانين الصوتية التى تحكم اختلاف كل لغة من هذه اللغات عن الأخرى .

وفى نفس هذه الفترة تقريباً ظهرت الطبعة الأولى من كتاب جريم « قواعد اللغة الألمانية » (برلين ١٨١٩) ولكن هذه الطبعة قد أغفلت دراسة الأصوات . وفى سنة ١٨٢٢ أعاد جريم طبع كتابه وأضاف إليه نحو ستمائة صفحة خصصها للأصوات وكان فيها واضح التأثر براسك . وفى سنة ١٨٤٨ نشر جريم كتابا آخر هو « تاريخ اللغة الألمانية » . وكان فيه أول من عالج تطور الحركات فى هذه اللغة بأسلوب علمى . وقد علل جريم هذا التطور بأنه نتيجة للتطور فى الدلالة وهو تعليل لا نصيب له من الصحة . وقد سمى القواعد التى سار عليها التطور الصوتى باسم القوانين الصوتية ، وعرفت فيما بعد باسم قوانين جريم .

وانتهى هذا القرن بعد أن اتضحت معالم هذا العلم الجديد وأصبح البحث فيه يشمل الفروع الآتية :

١ — الأصوات وأهم ما حدث فى هذا الفرع من فروع الدراسة اللغوية فى القرن التاسع عشر ما يأتى :

ا — دراسة التطور فى الأصوات ونقد قوانين جريم وتصحيح ما فيها من خطأ .

ب — ظهور علم الأصوات التشريحى على يد ج مولر J. Muller الذى ألف مجلدين فى هذا الموضوع .

ح — ابتكار أول كتابة صوتية لتدوين اللغات التى لم تساعد الحروف الرومانية على كتابتها . وصاحب هذه الكتابة هو ليبسيوس Lepsius الألمانى .

٢ — الدراسة اللغوية المقارنة وذلك بعد أن اكتشفت العائلات اللغوية وزاد الاهتمام بدراسة خواص كل عائلة . وقد حظيت اللغات الهندو أوروبية واللغات السامية بأوفر نصيب من العناية .

٣ — علم اللغة العام وأهم ما ألف فيه كتاب ماكس مولر Max Muller «محاضرات فى علم اللغة» أكسفورد سنة ١٨٦١ . أما زميله فى الدراسة هويتنى Whitney الأمريكى فله كتابان هما «اللغة ودراستها» و «حياة اللغة وتطورها» . ومع أن هويتنى كان أكثر عمقاً من زميله إلا أنه قد تورط فيما تورط فيه من تقليد مذهب دارون فى التطور ، وعالج اللغة باعتبارها كائناً طبيعياً . ومن هنا حاول كل منهما دراسة لغة الحيوان باعتبارها مرحلة مبكرة من مراحل تطور اللغة الإنسانية .

وفى هذه الفترة نفسها ظهر فى جنيف لغوى شاب اسمه فرديناند دى سوسير كان تلميذاً لعالم الاجتماع دوركايم . وقد اتخذ هذا الشاب لنفسه طريقاً مختلفاً عن طريق سابقيه ومعاصريه .

وكان اتجاهه هذا نقطة تحول ازدهرت على أساسها الدراسة اللغوية فى القرن العشرين . ولم يكن دى سوسير كثير الكتابة فلم ينشر غير بحثين أحدهما عن الحركات فى اللغات الهندية الأوربية ، وثانيهما عن الإضافة فى السنسكريتية ، ولكن عبقرية دى سوسير قد ظهرت فى محاضراته التى ألقاها فى علم اللغة العام فى جامعة جنيف ، والتى حررها ونشرها من بعده ثلاثة من تلاميذه . وقد كانت هذه المحاضرات كما أشرنا فاتحة عصر جديد فى الدراسات اللغوية .

أما القرن العشرون فينبغى أن نقسمه إلى قسمين أولهما نصفه الأول وينتهى بانتهاء الحرب العالمية الثانية ، وأما ثانيهما فيمتد من نهاية هذه الحرب حتى يومنا هذا . وقد تميز النصف الأول من هذا القرن بما يأتى :

١ — ظهور مدرسة دى سوسير ومن أعلامها مييه Millet وشارل بييه Charle Belly وسيشهاى Sechehaye ، وهى مدرسة تنظر إلى اللغة باعتبارها ظاهرة اجتماعية ، كما أنها كما يبدو لنا متأثرة بالمنطق ، ولعل هذا التأثر إمتداد لمدرسة بورت رويال الفرنسية التى سبقت الإشارة اليها .

٢ — ظهور المدرسة السيكولوجية التى يتزعمها هرمان باول Herman paul وووندت Wundt وجينكين Genneken

٣ ـ العناية بدراسة الدلالة وممن كتب فيها بريل Breal وفولك Falk وكارنوى Carnoy .

٤ ـ الاهتمام بالجغرافيا اللغوية وعمل أطالس لبعض اللغات من أهمها الأطلس اللغوى لفرنسا وهو يضم أكثر من ألفى خريطة لغوية تمثل النشاط اللغوى لتسعة وعشرين جماعة لغوية فى مختلف أنحاء فرنسا ، وهو من عمل ا . أدمونت E. Edmont و ج . جيليبرن J. Gilberon

وقد استغرق هذا العمل ثمانى سنوات (١٩٠٢ - ١٩١٠) ، وعلى منوال هذا الأطلس ظهر عدد من الأطالس الأخرى .

٥ - ظهور عدد من المجلات اللغوية وعقد المؤتمرات الدولية اللغوية .

٦ - الاهتمام بدراسة الأصوات إهتماما كبيراً ومن أعلام هذه الدراسة دانيال جونز Daniel Jones وجسبرسن Jespersen ، وجرامونت Grammont وفيرث Firth وتواديل Twadell ، وتروبوسكوى Trobtskoy

أما النصف الآخر من هذا القرن أو بالتحديد فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية فقد شهد قفزة هائلة فى الدراسات اللغوية ، وخاصة دراسة الأصوات اللغوية .

ولعل أهم حدث فى هذا المجال استعمال الأجهزة الألكترونية فى تحليل الأصوات وتسجيلها ، والنشاط الضخم الذى يقوم به اللغويون وخاصة فى أمريكا فى إحصاء لغات العالم وحصر خصائص كل منها .

نود فى النهاية أن نستعرض أهم النتائج التى انتهينا إليها اليوم ، ولعل من أهمها ما يأتى :

١ - الكف عن محاولة البحث عن اللغة الانسانية الأولى والتخلى عن نظرية الإلهام الإلهى واعتبار اللغة ظاهرة إنسانية اجتماعية .

٢ - الاتجاه إلى دراسة اللغة دراسة موضوعية إحصائية وتخليصها من التأويل والتقدير والاعتبارات المنطقية والفلسفية .

٣ - التفريق بين الحقائق اللغوية التاريخية والوصفية الثابتة وعدم الخلط بين هذه وتلك .

٤ - تقسيم اللغات إلى عائلات ، ودراسة اللغات التى تنتمى إلى عائلة واحدة دراسة مقارنة لتكوين فكرة عن اللغة التى تطورت عنها .

وبالرغم من أن البحث قد اتجه هذا الاتجاه الموضوعي فقد بقى موضوعان ظلا يراودان أذهان الكتاب حتى الأمس القريب وهما البحث عن أصل اللغة الإنسانية والأسباب التي تؤدى إلى تطورها وسنتعرض لهما في إيجاز :

أولا — أصل اللغة

يمكن باستعراض أعمال اللغويين منذ عصر النهضة حتى الآن أن نقول بوجود نظريات أربعة تفسر نشأة اللغة الانسانية، وجدير بالذكر أن هذه النظريات مجرد تخمين وحدس لا يرقى إلى درجة الثقة العلمية وهذه هي :

١ ـ نظرية التقليد الصوتي : وتقول بأن الإنسان قد بدأ بتقليد الأصوات الطبيعية كالرعد ، وتقليد أصوات الحيوانات كذلك ، فسمى الكلب « هوهو » والقطة « نو نو » الخ . وينتقد رينان هذه النظرية لأنها تضع الإنسان في الموضع الثاني بالنسبة للحيوان حيث أنه يقلده ويأخذ منه . ويدفع جسبرسن هذا النقد بأن هذه الأصوات لا تعني شيئاً محدداً بالنسبة للحيوان ، أما بالنسبة للإنسان ، فإن معناها محدد كما أن استعمالها على هذا النحو قاصر عليه . ومن المقطوع به أن « هو هو » لا تعني عند الكلاب معنى « كلب » كما تعني عند الإنسان الذي يستعملها في هذا المعنى (١)

٢ ـ نظرية أصوات التعجب . وتقول بأن الانسان يندفع بمقتضى فطرته إلى إرسال أصوات ، يعبر بها عن الخوف والفرح والتعجب وسواها من الانفعالات ، فهو حين يسعل أو يعطس أو يضحك أو يبكى ، يستعمل أصواتاً ترسلها فطرته . وقد كانت هذه الأصوات بدء اللغة الانسانية ، لم يلبث أن تنوع وتعددت مظاهره . ويعترض جسبرسن هنا بأن مثل هذه الأصوات ـ كما نشهد اليوم ـ لا ترتبط بمختلف مظاهر النشاط اللغوى ،

---

(١) أنظر jespersen, language p. 414 London 1947

بل هى مجرد نشاط صوتى ، قد يصدر منعزلا عن سياق الحديث ، كما أنها لا تخضع لما نعرف من قواعد اللغة . ومعنى هذا وجود فجوة بين هذه الأصوات ، وبين النشاط اللغوى العادى ، مما يبعد معه أن تكون أصلا للغة . ومع هذا ، فليس هناك مايمنع من أن بعض هذه الأصوات قد تستعمل فى اللغة العادية . ولكن على شريطة أن تخضع فى استعمالها لما يخضع له سواها من الألفاظ من قواعد(١) .

٣ — نظرية الربط الطبيعى بين الصوت والمعنى(٢) : ومقتضى هذه النظرية أن هناك ارتباطاً طبيعيا بين الكلمة وبين ما تدل عليه ، ومن ثم فإن ما يحس به الإنسان من مظاهر الكون الخارجية ، لا يلبث أن يجد فى سيكولوجية الإنسان ما يقابله من أصوات يرتبط به ارتباطا طبيعيا . وفساد هذه النظرية ظاهر الوضوح ، فلو فرض أن رأيت جسما اسمه حجر ، فإنه بمقتضى هذه النظرية سيكون هناك ارتباط فطرى بين الحاء المفتوحة والجيم المفتوحة والراء ، وبين هذه الكتلة الخارجية من المادة التى رأيتها . ولكن لو فرض أن صادف انجليزى نفس التجربة ، فكيف نفسر أنه ينطق بكلمة Stone للدلالة عليه ، مع أنه يرتبط ارتباطا طبيعيا بالحاء والفتحة والجيم والفتحة والراء ، لا بالسين والتاء والضمة الطويلة والنون . وعلى هذا فلو صحت هذه النظرية ، لما تعددت لغات البشر .

٤ — نظرية الأصوات الجماعية : ويرى صاحبها نوارى Noére أن التنفس الشديد يتطلب قيام الإنسان بمجهود عضلى ويجعل الهواء المار بالحنجرة يحرك الأوتار الصوتية، فتنتج أصواتا مختلفة . وعندما يزاول عدد من الناس عملا شاقا ، يحدث هذا بشكل جماعى ، فيقولون مثلا « هيلا هيلا هوب » . ومن الممكن أن تكون هذه الحقيقة أصلا لنشاه اللغة الإنسانية .

---

(١) ص ٤١٠ المرجع السابق .

(٢) استعرض هويتى هذه النظريات الثلاثة فى محاضرته الحادية عشرة المنشورة ضمن كتابه Lnaguage and the study of language لندن سنة ١٨٦٧

ويرى جسبرسن أن هذه النظريات جميعا لا تفسر سوى جزئيات من النشاط اللغوى . ولا بأس من أن نعترف بها جميعا، على ألا نجعل إحداها، أو نجعلها جميعا ، المصدر الوحيد الذى نشأت عنه اللغة الإنسانية . ولو أردنا معرفة أصل اللغة ، لتحتم علينا أن ندرس أموراً ثلاثة هى :

١ — لغة الطفل .

٢ — لغة القبائل البدائية .

٣ — تاريخ اللغات(١) .

وتاريخ اللغات أمس الموضوعات بموضوعنا فى هذا الكتاب .

أسباب التطور اللغوى

نود فيما يلى أن نستعرض الأسباب التى ذكرها الكتاب اللغويون لهذا التطور . وينبغى بهذه المناسبة أن نشير إلى أن هؤلاء الكتاب قد عنوا بصفة خاصة بالتطور فى الأصوات ، وكان ذلك على أثر الاهتمام البالغ بما سماه جريم Grimm بالقوانين الصوتية ، التى كان يعتقد حينئذ أنها قوانين عامة شاملة ، تنطبق على جميع اللغات ، وأنها فى ذلك مثل القوانين الطبيعية الأخرى . ونحن نلخص فى اختصار هذه الأسباب التى ينسب إليها حدوث هذا التطور .

(١) الاختلاف التشريحى :

يرى بعض العلماء أن سبب اختلاف الأصوات الحديثة عن الأصوات القديمة فى لغة من اللغات ، هو أن الأعضاء الصوتية للأجيال المتأخرة فى جماعة لغوية ما تختلف اختلافاً تشريحياً عما كانت عليه عند الأجيال المتقدمة . وما دامت الأعضاء الصوتية هى التى تنتج الأصوات ، فإن

---

(١) المرجع السابق ص ٢١٦ .

اختلافها الفسيولوجى يؤثر ولا شك فى إنتاج الأصوات نفسها . ويمثل هؤلاء لنظريتهم هذه بما يؤثر عن بعض القبائل البدائية التى تزين نساؤها أفواههن بقطعة من الخشب الرفيع تخترق الشفة السفلى . ويقول هؤلاء العلماء إن هذا العمل هو السبب فى انقراض الصوت « ف » من لغة هذه القبائل . وذلك لأن النساء — والحال هذه — لا يمكنهن النطق بالفاء . وبالتالى فإن الأطفال لا يلقنون هذا الصوت .

وقد يكون من الصحيح أن التشويه الشديد فى أعضاء النطق ، يؤثر على مخارج الأصوات ، ولكن من الصحيح أيضاً أن الاختلاف التشريحى الذى لا يبلغ حد التشويه لا يؤثر على نطق الأصوات اللغوية . وذلك لأن ما يؤثر على نوع هذه الأصوات ، إنما هو طريقة وضع الأعضاء الصوتية بعضها من بعض ، لا شكل هذه الأعضاء (١) . وقد يختلف حجم بعض أعضاء النطق عند الزنوج عنه عند النرويجيين . ولكن الذى لا شك فيه أن الطفل الزنجى، إذا نشأ بين النرويجيين ، سيتكلم لغتهم بنفس الإجادة والدقة التى يتكلمونها بها .

كذلك نلاحظ فى بعض اللغات اختفاء صوت من الأصوات عند جيل من الأجيال ، ثم لا نلبث بعد حين أن نجد هذا الصوت وقد ظهر مرة أخرى . وإذا كان من الصحيح أن اختفاء هذا الصوت كان نتيجة لتغير تشريحى ، فإنه يكون من المستحيل ، تبعاً لذلك أن يتمكن المتكلم من النطق به ، وهذا يخالف ما نجد أمام أعيننا . ونحن نلاحظ فى مصر أن القاف الفصيحة لا تنطق فى العامية ، وأن بعض الفلاحين وخاصة النساء ، ينطق صوتاً أقرب إلى الكاف عندما يحاول النطق بالقاف . ولكننا نجد أن بعض الدربة والمران ، كفيل بتعليمهم النطق بالقاف نطقاً سليماً يرضى

---

(١) أنظر ص ٦٠ — ٦١ ، ٧٣ من Cray's Foundation of Language New York 1629.

من يتكلمون الفصحى ، ومعنى هذا أن الأمر لا يمكن أن يكون اختلافا فى أعضاء النطق ، وأنه ليس سوى حاجة إلى التدريب على استعمالها تدريبا صحيحا .

(ب) اختلاف الظروف الجغرافية والمناخية :

يؤمن من يقول بهذا السبب بأنه لو هاجر بعض أبناء جماعة لغوية إلى منطقة أخرى مختلفة مناخيا أو جغرافيا عن المنطقة كانوا يسكنونها من قبل ، فإن ذلك يسبب تغيرا فى أصوات اللغة التى يتكلمونها . وذلك لأنهم يعتقدون أن قسوة الطبيعة أو رقتها تؤثر عليهم رقة أو غلظة ، فتؤثر بالتالى على ما ينطقون من أصوات . ويعزو هـ. ماير بينفى H. Mayer-Benfey تغير بعض الأصوات الساكنة Consonants فى الألمانية الفصيحة High German إلى هجرة القبائل الألمانية ، من المناطق الجبلية إلى مناطق جغرافية أخرى أكثر سهولة . كما يعزو سواه تغيرات صوتية أخرى إلى اختلاف جغرافى أو مناخى .

ويعلل آخرون تأثير الظروف المناخية والجغرافية على الأصوات تعليلا مادياً لا نفسياً . وهم يقولون بأن المناطق الجبلية أنقى وأكثر هواء من سواها ، وأنها من أجل ذلك تؤثر على حجم الرئة ، وعلى مقدار ما تتسع له من هواء . وعند ما يتكلم ساكن الجبل ، يندفع من الرئة إلى الحنجرة قدر من الهواء أكثر مما يندفع منها إلى حنجرة ساكن المدينة . وبالتالى تكون الأصوات التى ينطق بها ساكن الجبل أكثر غلظة وقوة من أصوات ساكن المدينة .
والرد على الشق الأول من هذا الرأى أمر يسير ، فهناك أصوات متشابهة فى غلظتها أو رقتها ، فى لغات شعوب تسكن مناطق تختلف اختلافاً جوهرياً فى ظروفها الجغرافية والمناخية ، فالأصوات الغليظة المفخمة قد توجد فى ربوع لبنان وجباله ، كما توجد فى سهل وادى النيل وصحراء للجزيرة

العربية . كما أن أحدا لا يشك فى تطرف قسوة المناخ والظروف الجغرافية التى يعيش فيها الإسكيمو ، ومع ذلك فلغتهم موسيقية رقيقة .

والرد على الشق الثانى أمر يسير كذلك . وذلك لأن كمية الهواء الخارجة من الرئة ، لا تتدخل فى كيف الأصوات Sound quality ، أى فيما يعتورها من رقة أو غلظة ، فمثل هذا ناتج عن تشكيل اللسان أو عن توسيع الفراغ الذى فى داخل الفم بانتفاخ الشدقين أو غير ذلك . كما أن الهواء الذى يستعمل فى الكلام محدود الكمية ، بحيث يستطيع أى إنسان ، مهما صغرت رئتاه ، أن ينتج مايشاء من الأصوات ، متى توفرت له القدرة الكافية على تحريك أعضاء النطق لديه بما يتفق وما يتطلبه إنتاجها .

(ح) اختلاف السيكولوجية الجماعية :

جنح فريق آخر من علماء اللغة إلى الاهتمام الزائد بالظروف النفسية للجماعة ، أكثر ما اهتموا بالظروف الخارجية عند تعليلهم للتطور اللغوى. وقد شاع لديهم منذ عهد جريم هذا الاتجاه ، بل إن جريم نفسه يقول بأن التغييرات الصوتية التى حدثت فى اللغة الألمانية ، نتيجة مباشرة للنزعة التقدمية التى تتميز بها سيكولوجية الألمان . وذلك لأنهم قوم ميالون للحرية ومن ثم لا يرتضون الاستقرار على وضع ثابت إلى أمد طويل . ومن أجل هذا هاجروا من مكان لآخر ، كما تغيرت الأصوات اللغوية لديهم مرتين لا مرة واحدة فحسب ، كما حدث عند سواهم من الشعوب السكسونية والاسكندانيفية ، ممن فى أقل منهم همة وطموحا .

كذلك رأى مليينهوف Meinhof أن تغير .p. t. k إلى .b. p. j دليل على روح الرخاوة والميوعة التى انتابت الألمان . ولكن هذه الروح لم تلبث أن زالت فرجعت الأصوات إلى ما كانت عليه من قبل .

ويرى ولهلم شيرر Wilhelm Scherer أن تاريخ الأصوات الألمانية ، هو انعكاس لتاريخ تطور الذوق العام عند الألمان ، وهو يرى أن عدول الألمان عن الأصوات المتفجرة p. t. k. إلى أصوات احتكاكية b. b. j. لم يكن سوى رد فعل لشغف الشعب الألمانى حينئذ باستعمال الأصوات اللينة.

ونحن لا نشك فى أن لكل شعب نوعا من الشغف ببعض الأصوات ، ولكننا لانقبل أن نجعل ذلك سببا أساسيا فى تغير الأصوات اللغوية . وقد يكون الشعب المصرى ، أو على الأقل بعض أفراده ، شغوفاً بتقليد الأصوات الفرنسية ، ولكن هذا فى الواقع نتيجة لشغفه بمظاهر الحياة الفرنسية، وهو بذلك يصطنع لنفسه نوعاً جوهرياً منها هو اللغة. ولاشك أن مثل هذا الإعجاب أمر سيكولوجى ، ولكنه أمر مكتسب لا تغير جوهرى فى طبع الشعب ، وهو ما جعله هؤلاء اللغويون سببا فى التغير الصوتى .

(د) التغير فى سرعة النطق :

يعلل وندت Wundt تغير الأصوات فى اللغة الألمانية بالثورة الثقافية التى مرت بالألمان ، والتى انتهت بهم إلى الانتقال من قبائل بدائية مهاجرة إلى دولة مستقرة . وقد كانت هذه الثورة الثقافية عميقة الجذور فى نفس الشعب الألمانى ، فلم تقف عند هذا الحد السياسى ، بل لقد أثرت بدورها على سرعة النطق بالأصوات اللغوية :

ويمضى وندت مستعرضاً الأصوات التى تغيرت ، مبينا كيف أثرت النزعة إلى سرعة النطق على حركات الأعضاء الصوتية ، بما جعل التغير الذى وصلت إليه أمراً لا مفر منه . ولكن وندت لم يكن دقيقا فى وصفه لحركات أعضاء النطق، كما أنه لم يبين السبب فى أن هذا التغيير فى الأصوات قد انحصر فى مجال اجتماعى ضيق ، بينما كانت الثورة الثقافية شاملة ،امتدت

أطرافها حتى شملت جميع شعوب أوربا بأسرها ، هذه الشعوب التى تطورت كما تطور الألمان[١] .

(هـ) قانون ماندل والتطور اللغوى :

حاول بعض اللغويين تطبيق قانون ماندل Mandel's Law على التطور اللغوى . وقانون ماندل هـذا هو قانون يبين نسبة الوراثة البيولوجية بين الأبناء والآباء . ويقرر هذا القانون أن نصف عدد الأولاد يرثون خليطا من خصائص الأب والأم ، وأن ربعهم يرثون خصائص أحد الأبوين فحسب ، بينما يرث الربع الآخر خصائص الأب الآخر . ونستطيع أن نتصور ما ينتج من اختلاف بين عدة أجيال ، نتيجة لاختلاط صفات أجيال من الآباء بصفات أجيال من الأمهات . ويقرر نفس القانون أن هناك تغيرات فجائية ، تبدو على بعض الأبناء ، وأن بعض هذه التغيرات فى الواقع رجوع إلى خصائص جد من الجدود الأقدمين .

ويقول اللغويون الذين يطبقون هذا القانون على التطور اللغوى ، إن ما يبدو من تغير ليس فى الواقع سوى خصائص لغوية مختلفة ، موروثة عن الأمهات والآباء كما تورث صفاتهم الجسدية والعقلية . وكثيراً ما يحدث أن يطرأ على اللغة تغيرات بعيدة عن الخصائص اللغوية التى كانت تسود جيلا قريبا من آبائنا أو أجدادنا ، وهذه ليست سوى رجعة إلى الخلف من الأجيال اللاحقة ، لتأخذ من أجيال سابقة بعض الخصائص اللغوية التى كانت سائدة لديها[٢] .

ونحن لا نرتضى هذا النوع من المنطق ، فهناك فرق جوهرى بين وراثة

---

(١) هذه الآراء ملخصة عن جبرسن فى كتابه Language من ص ٢٥٢ إلى ٢٥٩

(٢) أنظر كتاب Gray المتقدم الذكر ص ٨٤

الخصائص البيولوجية ووراثة اللغة . والوراثة الأولى وراثه مادية ، تنتقل بواسطة ما يسميه علماء الأحياء بالجينات genes ، وهى كائنات مادية تنتقل من جسم الأب والأم ، لتكون البذرة الأولى لجسم الابن ، أما اللغة فمجرد نشاط يقلد فيه فرد سواه من الأفراد ، ولهذا فإن الميراث اللغوى لا يقتصر على أخذ الفرد اللغة عن أبويه ، بل إنه يتسع ، حتى يشمل أخذها عن أصدقائه وبقية معاصريه ، ممن يكبرونه أو يصغرون عنه .

(و) نظرية الطبقات السفلى Sub-Strata

يفسر التطور الذى يحدث فى لغة من اللغات بمقتضى هذه النظرية ، بأنه مجرد مخلفات من اللغة أو اللهجة التى كانت سائدة قبل أن تفد لغة حديثة إلى الوطن اللغوى ، وترى هذه النظرية أن التاريخ يشبه إلى حد كبير كومة من الأنقاض ، ليست فى واقع الأمر سوى عدد من الطبقات — التى قد تختلف مادتها — تراكم بعضها فوق بعض ، وتاريخ مصر مثلا هو مجموعة من الطبقات أهمها عصر ما قبل مينا ، ثم عصر الأسرات القديمة ، ثم عصر الرومان ، ثم عصر الفتح الإسلامى الخ ، حتى نصل إلى العصر الحديث . واللغة التى نتكلمها فى مصر لم تكن فى هذه الديار منذ فجر التاريخ بل لقد سبقتها فى هذا الوطن لغات ولهجات كثيرة، نعرف منها اللغة المصرية القديمة ، والقبطية ، التى جاءت العربية على أثرها .

وإذا كان من الصحيح أننا نتكلم اليوم لهجة عربية ، فمن الصحيح أيضاً أن كثيراً من الخصائص القبطية قد تسربت إلى هذه اللهجة ، وقد تفسر هذه الحقيقة ما بين اللهجة المصرية واللهجة السورية واللبنانية والعراقية واللهجات العربية فى شمال أفريقيا من خلاف ، ففى مصر سادت اللغة القبطية ، بينما سادت السوريانية فى الشام ، والفارسية فى العراق ، والبربرية فى شمال أفريقيا ، قبل وفود العربية على يد الغزاة المسلمين إلى هذه البلاد

(ز) النزوع نحو السهولة وتوفير الجهد :

بهذا يفسر اللغوى الأمريكى هويتنى Whiteney التغير الذى يحدث فى اللغات (١) . ومنذ عصر مبكر اختلف المفكرون فيما إذا كانت اللغات تجنح إلى السهولة أو إلى التعقيد . ولعلك تذكر ماسبق أن قلنا من وجود مذهبين إغريقيين ، يسمى أحدهما مذهب القياسيين ، ويسمى الآخر مذهب الشذويين ، وأولهما يؤمن بأن اللغة تسير نحو السهولة وذلك بأن تفرض قاعدة يجرى على قياس منها الاستعمال اللغوى . أما الآخرون فيقولون بأن الشذوذ والخروج عن القاعدة ، يكاد يكون القاعدة اللغوية الوحيدة التى لا شذوذ فيها . ومعنى هذا أنهم لايؤمنون بأن اللغات تتجه إلى السهولة وتوفير الجهد .

ويقرر هويتنى أن « كل ما نكتشفه من تطور فى اللغة ليس إلا أمثلة لنزعة اللغات إلى توفير المجهود الذى يبذل فى النطق (٢) » . كذلك يقرر « أن هناك استعداداً للاستغناء عن أجزاء الكلمات التى لا يضر الاستغناء عنها بدلالتها » . كما أنه يرى من دلائل هذه النزعة لجوء الإنسان إلى الاختصار فى الكتابة ، بأن يسلك الطريق الأقصر ، بدلا من اللف والدوران ، طالما أن ذلك لا يؤثر فى المعنى تأثيراً يجعل التوفير فى المجهود أمراً يضر أكثر مما يفيد .

وإذن فإن المجهود الذى يريده هويتنى، هو المجهود الذى تبذله الأعضاء الصوتية فى النطق. ولكننا لا نجد فى الكلام كل هذا القدر من المشقة ، حتى يلجأ الإنسان إلى توفير ما يبذل فيه من جهد ، ومن أجل هذا يعارض

---

(١) أنظر كتابه Life and Growth of Language ، طبع لندن سنة ١٨٨٠ ص ٣٩ وما بعدها .

وانظر أيضا كتاب جسبرسن السابق ص ٢٦١ وما بعدها

(٢) ص ٤٨ من كتاب هويتنى المذكور

سيفرز Sievers وليسكين Leskien هذا الرأى ويعتبرانه مجرد « كلام أجوف يرفضه العلم الحديث[1] » .

ومع هذا فإن من الواضح أن عصراً كعصرنا الحديث، ينزع عن طول العبارات وحشوها بالاستعارات والكنايات ، على الأقل فى بعض نواحى المعرفة، بمقدار مايهدف إلى دقة التعبير واختصاره وإحكامه. وقد لاأكون مبالغاً، إذا قلت بأن اللغة فىعصرنا كادت تصبح مجرد وسيلة للتعبير المحكم لاتقصد لمجرد الإيقاع والجرس أو للزينة البديعية أو البيانية التى كانت هدف الكاتب الأول ذات يوم . ومن ثم فإنه من الصحيح أن نقول بأن العبارة لاتقصد لذاتها بل لما تدل عليه .

وقد كان الفن الأدبى العربى يوما من الأيام متمثلا فى تكرار الصفات، والمبالغة فى العبارة بالزينة والتنسيق ، وليس علم البديع سوى نتيجة لمثل هذا الاتجاه المبالغ ، أما اليوم فلم يعد فن القول كبير العناية بهذا النوع من الزخرف والزينة ، وبهذا المعنى يمكن أن نقول بصحة نظرية توفير الجهد .

ويلاحظ جسبرسن[2] أن توفير الجهد قد يكون سبباً فى التغيير، ولكن قد يكون هناك من الأسباب الأخرى ، كالانفعال بعاطفة من العواطف مثلا ، ما يقضى على أثر هذه النزعة فيندفع المتكلم فى دفعات تعبيرية لاتقرر شيئاً جديداً ولا يمكن أن تعتبر أكثر من تخفيف عن نفس مثقلة بالانفعال . كذلك يلاحظ الكاتب نفسه ، أنه ليس من اليسير أن نميز الأصوات التى يسهل نطقها من الأصوات التى يعسر على الإنسان أن ينطق بها . وذلك لأن السهولة أو العسر أمر نسبى ، ومن ثم لا يمكن اعتبار هذا النوع من النشاط العضلى — اللازم للكلام — أكثر عسراً أو يسراً من ذلك النوع . ومن ذا الذى يستطيع أن يدعى أن الدال أو الزاى ، أكثر سهولة فى نطقها من الذال ، ثم يتخذ ذلك مبرراً لظهور الذال الفصيحة زايا

---

(١) ص ٥٠ من المرجع السابق .

(٢) من جسبرسن فى كتابه السابق ص ٢٦١ — ٢٦٢ .

أو دالا فى اللهجة المصرية الحديثة فى مثل الكلمات . ذل « وزل » و« ذباب » و« دبان » . إن ماقد يتصوره البعض من سهولة فى نطق صوت من الأصوات ، أو صعوبة فى نطق صوت آخر ، ليس سوى أثر من آثار العادة اللغوية التى تنطق بهذا ولا تنطق بذلك . وليس وضع طرف اللسان بين الأسنان بالأمر المجهد ، ولا وضعه خلفها بالأمر المريح . ولو كان هذا حقيقياً لا نقرض صوت « الذال » من جميع لغات البشر ، استجابة لدعوى من يقول بجنوح الإنسان إلى التخلص من الأصوات التى يتطلب النطق بها جهداً أو عسراً .

* * *

إلى هنا استعرضنا عدداً من النظريات التى قدمها أصحابها أسبابا لما يحدث فى اللغة من تطور . ونلاحظ فى كل ما استعرضنا من آراء تأثر علماء اللغة بتيار العلم العام . ويظهر ذلك فى أحد اتجاهين .

أما الاتجاه الأول فتقليد لعلم الأحياء ، وذلك على أثر شيوع نظريات دارون . ودليل ذلك بعض العبارات الدارونية التى وردت على لسان جسبرسن ، مثل عبارته القائلة بأن « مثل هذه الكلمات تنزع إلى اتخاذ الطريق الأقل مقاومة ، وهذه عبارة دارونية مشهورة »(١) . كذلك يذكر باول أن اللغة تحتفظ بأنفع الكلمات ، حيث أن « البقاء للأصلح » ، وهذه عبارة دارونية ثانية . وليس من يحاول تطبيق قانون ماندل على التطور اللغوى ، سوى مثال متطرف لهذا الاتجاه .

أما الاتجاه الثانى ، فافتتان علماء اللغة بما حققه علماء النفس وعلماء الاجتماع من كشوف عن دخيلة الإنسان . ومن هنا حاولوا تعليل ما يطرأ من تغير ، بظروف سيكولوجية وبتعرض الشعب لتأثير بيئته الجغرافية أو المناخية . أو بخصائص سيكولوجية تميز الشعب عن سواه من الشعوب . وسنرى فيما يلى عرضاً أشمل لهذه المذاهب الفكريه .

---

(١) انظر كتابة Language ص ٢٦٢

المذاهب الفكرية والتطور

عرضنا من قبل لفكرة التغير change وكيف أنها شغلت قدراً مناسباً من التفكير الإغريقي . والتغير بمعناه العام ليس هو المقصود بالتطور evolution ،إذ أن هذا الأخير يعني تغيراً يتخذ نسقاً منتظماً يمكن أن نتتبع مراحله وخصائص كل مرحلة. والتطور بهذا المعنى نقطة ارتكاز تقوم عليها الدراسة فى مختلف فروع العلم. ومن أجل هذا لم يقتصر القول بنظرية التطور على العلوم الطبيعية ، كعلوم الحياة والفلك وطبقات الأرض. ولكنه شمل كذلك العلوم الإنسانية كالتاريخ والقانون والاجتماع وعلم اللغة . ومن الطبيعي أن يكون للتطور فى كل من هـــذه العلوم ميزاته التى تفرضها عليه طبيعة المادة التى يعالجها .

وعن طريق علم طبقات الأرض (الجيولوجيا) دخلت إلى ميدان الدراسة التطورية نظريتان ، إحداهما تقول بأن التطور يحـــدث على قفزات مفاجئة والثانية تقرر أن التطور أمر تدريجى . وقد كان السبب فى القول بالنظرية الأولى ما انتهى إليه علم طبقات الأرض من حدوث كوارث طبيعية ، كالفيضانات والبراكين وانكسار القشره الأرضية ، أدت إلى طمس معالم الحياة لتبدأ من جديد على نحو أكثر مناسبة للظروف التى جدت بعد أن انتهت كل من هذه الكوارث ، ومثل هـــذا التغير ولا شك سريع ومفاجىء. أما من يقول بالتغير التدريجى فإنه يقرر أن هذه الكوارث لم تقض على الحياة فى جميع مظاهرها بل على الأجزاء التى تعرضت للكوارث ، أما الأجزاء النائية عن مسرح الحوادث فقد ظلت تتخذ طريقها المتدرج فى التطور . ومع هذا فقد تكون ضرورة الظروف التى تخلفت عن الكارثة سبباً فى الإسراع بتحقيق التطور، ولكنها لم تفقد التطور طبيعته المتدرجة . ويلقى هذ المذهب المتدرج قبولا من دارسى العلوم الإنسانية ومنها علم اللغة ، فهم يرون أن التطور متدرج ، وإن كانت هناك

بعض العوامل المفاجئة التى قد تجعله أكثر سرعة ، مثل الحروب أو الكوارث الطبيعية التى تدفع الناسَ إلى الهجرة .

بعد هذا نبدأ بسرد المذاهب الفكرية وعلاقتها بموقف اللغويين من تطور اللغة .

المذهب الروحى :

كانت الفكرة السائدة قبل عصر دارون (منتصف القرن التاسع عشر) أن أنواع الأحياء المختلفة كالإنسان والحصان والجمل ، قد خلقت بادىء ذى بدء وكل منها يحمل الخصائص التى تميز نوعه عن بقية الأنواع . ومع هذا فإن ثمة تغيراً حدث فى تكوين هذه الأنواع ولكنه تغير لا يمس مميزات النوع الأصيلة ، وقد عرفت هذه النظرية باسم نظرية « الخلق » .

وقد سيطرت هذه النظرية على الفكر اللغوى إلى عصر الداروتية . وقد سبق أن عرضنا للرأى القائل بأن اللغة خلق من خلق الله . وقد فسر « خلق » اللغة أحد تفسيرين ، أولها أن الله قد خلق الألفاظ والأشياء وأنه علم آدم اللغة ، أما التفسير الثانى فيقرر أن الله قد خلق فى الإنسان الملكة اللغوية ، وأن هذه الملكة قد نشطت فى كل جماعة لغوية على نحو معين فخلقت لكل جماعة لغتها . ونحن هنا نجد أنفسنا وقد عدنا إلى الوراء لما نقلناه عن الإغريق من وجود نظريتين للوجود إحداهما نظرية وحدة الأصل monogenisis ويدخل فى نطاقها النظرية القائلة بأن الله قد علم آدم اللغة وأن بقية لغات البشر قد تفرعت عن لغة آدم ، وثانيتهما نظرية تعدد الأصل polygemisis ويدخل فى نطاقها نظرية خلق اللغة بواسطة الملكة اللغوية لكل جماعة وبالتالى وجود عدد من اللغات الأولى لا لغة واحدة .

المذهب الطبيعى :

اقترنت كلمة التطور باسم العالم الإنجليزى تشارلز دارون Cherles Darwin وهو وإن لم يكن أول من قال بنظرية التطور إلا أنه أول من نشر كتاباً كاملا يشرح فيه معنى التطور ويضرب له الأمثلة من مختلف وقائع الحياة المادية والعقلية. وقد أحدث كتابه «أصل الأنواع» The Origin of Species الذى نشر سنة ١٨٥٩ دوياً كبيراً فى جميع زوايا التفكير الإنسانى. ويشمل هذا المذهب أربع مسائل جوهرية هى :

١ — تنازع البقاء وهو أمر يحدث بين الأنواع القريبة بعضها من بعض.

٢ — ظهور صفات خاصة فى بعض الأفراد .

٣ انتقال هذه الصفات الخاصة بالوراثة إلى النسل .

٤ — شيوع هذه الصفات وكثرتها بحيث يمكن اعتبار من يرثها من النسل نوعاً مختلفاً عن من لم يرثها .

وقد طبق هذا المذهب على الجانب المادى والعقلى فى الحياة. أما عن الجانب العقلى ، وهو الذى يعنينا هنا ، فقد حطم دارون النظرية القائلة بأن اللغة أمر قاصر على الإنسان دون الحيوان ، لأنها من نتاج العقل الذى يتميز به الإنسان. تحدى دارون هذا الرأى ، بأن أورد كثيراً من الأمثلة التى تثبت دون شك أن الحيوان مفكر ، وأنه يستطيع التفاهم كذلك . ومن ثم فقد رأى أن الاختلاف بين الإنسان والحيوان ليس اختلافاً فى النوع بل فى الدرجة ، كلاهما مفكر ، ولكن تفكير أحدهما أعلى درجة من تفكير الآخر. وثمة أمر آخر يهمنا من نظريات دارون وذلك هو وجود مراحل متوسطة بين الأنواع السابقة والأنواع اللاحقة. ويمكن تفسير الشذوذ اللغوى بأنه بقية من هذه المراحل.

وقد طبق العالم الجيولوجى ليل هذه النظريات على اللغة فقرر «أن الأنواع فى الطبيعة ، واللغات فى التاريخ تتغير تبعاً لنواميس متشابهة. . . . والعاملان

الجوهريان فى اللغات هما كما فى الأنواع(١) التغير والانتخاب الطبيعى. وكما يحصل فى الأنواع يحصل كذلك فى اللغات أيضاً نتائج عظيمة لتجمع أسباب عديدة صغيرة، لا قيمة لها فى حد نفسها كإدخال عبارات أجنبية وكثرة الخطباء والكتبة والاختراعات والاكتشافات وتعلم علوم جديدة وتنازع الألفاظ إلى غير ذلك مما يغير اللغة » (٢)

بعد ليل جاء العالم اللغوى شليخر فنشر كتابه الذى أشرنا إليه من قبل بعنوان « دارون وعلم اللغات » . وقد قرر فيه أن « مبادىء دارون تنطبق جميعها على كيفية نمو اللغات، فإن جميع لغات أوروبا يكاد يكون لها أصل واحد هو اللغة الهندية الجرمانية. ومنها تفرعت عدة فروع أولا، ثم تفرع من هذه الفروع فروع أخرى وهكذا . ولا يظن أن ما قيل افتراض. كلا بل هو مقرر علمياً، فإنه يمكن مراقبة لغة من اللغات وتتبع مسيرتها فى سائر أحوال ارتقائها، كاللغة اللاتينية مثلا فإنه يتحقق منها أن اللغات تتغير ما دامت يتكلم بها. ولنا فى الآثار الكتابية الدليل الذى لا ينقض على صحة هذا القول. ولولا الآثار المذكورة لتعذرت على الفلولوجى « أى عالم اللغات » معرفة ذلك. ولما كانت تغيرات اللغة تحصل فى زمن قصير جداً بالنسبة إلى بعض الأنواع (الطبيعية) كان إدراكها سهلا أيضاً. زد على ذلك أن سائر اللغات، حتى أعظمها، يتعلم من أبنائها، أى أن ارتقاءها حصل بالتدريج مبتدئا من أبسط الصور، فلم يكن منها فى أولها سوى الألفاظ البسيطة المعبرة عن الإحساسات والصور والأفكار وما شاكل ذلك بدون أدنى تغير صرفى أو نحوى، وقد تكونت هذه الأصول فى أول الامر كما تكونت الكريات العضوية وكانت كثيرة مثلها .

---

(١) أى الأنواع الطبيعية .

(٢) عن الأستاذ شبلى شميل شرح بخنر المقالة الثانية ص ١٢٠، ١٢١ من كتابه فلسفة النشور والارتقاء مطبعة المقتطف بمصر سنة ١٩١٠

وهذا يدلنا على أنه كان فى البدء لغات أم كثيرة خاضعة كلها لكيفية نمو واحدة كالصور العضوية الأصلية ، ولم يسر نموها فى سبل مختلفة إلا بعد حين .

وعلى رأى شليخر فاللغات قد بقيت قبل دخولها فى العهد التاريخى زمانا أطول منه بعده. وذلك مطابق لما يعلم عن الإنسان وقدمه قبل العهد المذكور. ولا يخفى أننا لا نعلم شيئا عن اللغات قبل اختراع الكتابة ، وأن هذا الاختراع يدل على درجة متقدمة جداً فى تاريخ الارتقاء البشرى .

وقد اضمحلت لغات كثيرة فى بحر الدور السابق على العهد المذكور [1] وفيه أيضا . وقد تكونت عنها لغات كثيرة كذلك . ولا شك أن اللغات التى اضمحلت قبل التاريخ والتى لا نعرف عنها شيئا أكثر جداً من اللغات التى عاشت بعده »[2] .

وعند شليخر أن اللغة تمر فى تطورها بثلاث مراحل هى :

١ — مرحلة الانفصال ، وهو كون الكلمة مركبة من مجموعة من الأصوات تعبر عن فكرة دلالية بسيطة . ومن اللغات التى توصف مفرداتها بأنها انفصالية اللغة الصينية ، وتتكون الكلمة فيها من مقطع واحد لا يقبل السوابق prefixes أو اللواحق suffixes أو الأواسط infixes كما أنها تدل على فكرة بسيطة واحدة كالأكل مثلا ، دون تعيين زمنه أو فاعله أو هيئته أو غير ذلك من الدلالات التى يعبر عنها الفعل فى اللغة العربية مثلا إلى جانب تعبيره عن الحدث .

٢ — مرحلة اللصق ، وفيها تتكون الكلمة من أصل ، يعتبر أساساً لها . ولا يتغير هذا الأصل بزيادة أو تغيير فى داخله ، ولكن بلصق

---

(١) أى العصر التاريخى وهو العصر السابق على عصر ما قبل التاريخ

(٢) شميل ، المرجع السابق ص ١٢٢ ، ١٢٣

أصول أو زيادات فى أوله وفى آخره فقط . ويعبر الأصل عن الفكرة الأساسية ، أما الزيادات الملتصقة به فيضيف كل منها إلى هذه الفكرة دلالات معينة .

ومن اللغات التى توصف بأنها لصقية اللغة التركية ولهجة الفاديشا فى اللغة النوبية . وهى لهجة يتكلمها سكان المنطقة التى تقع بين ادندان جنوبى أسوان وعبرى بشمال السودان ، على وجه التقريب ، وفى المثال الآتى يتضح لك ما تعنيه باللصق فى اللهجة المذكورة .

f-aawa - deen-c-er-ang ekka

والأصل هنا « aaw » بمعنى « عمل » وقد أضيف قبله « f » وهى أداة استقبال جعلت هذا الأصل فعلى الدلالة ، ثم أضيف فى نهايته عدد من اللواصق هى « deen » بمعنى « لنا » و « c » بمعنى كل و « e » وهى زيادة تحول المدلول الفعلى إلى مدلول اسمى و « ang » وهى زيادة تحول المدلول الاسمى إلى مدلول فعلى و « e » وهى زيادة تحول المدلول الفعلى إلى مدلول اسمى و « ka » وهى علامة المفعولية . ومعنى هذا التركيب اللصق ستعمل « f-aaw » لنا (deen) كل (c) عمل (e) يصير (ang) معمولا (e) .

ويلاحظ هنا أن الترجمة العربية قد استعملت الأصل « ع . م . ل » ثلاث مرات ، وذلك فى الكلمات « تعمل » و « عمل » و « معمول » أما النوبية فقد اكتفت باستعمال الأصل الدال على العمل مرة واحدة فى أول الصيغة ثم أضافت الزيادات التى جعلت هذا الأصل يعنى الفعل مرة والمصدر مرة أخرى واسم المفعول مرة ثالثة (١) .

---

(١) أنظر رسالتنا لنيل درجة الدكتوراه بمكتبة كلية دار العلوم بعنوان The Verbal Piece of a Nubian Dialect لندن سنة ١٩٥٢

٣ ــ مرحلة الاشتقاق . واللغات التى تصل إلى هذه المرحلة تتركب من أصول تعبر عن الفكرة الأساسية ، وتصل ـ بإضافة لواحق أو سوابق أو أواسط ـ لتكوين المفردات التى تدل على الفكرة الأساسية وعلى بعض الأفكار الأخرى فى نفس الوقت .

ولعل خير مثال لهذا اشتقاق المفردات فى العربية من الأصول الثلاثية . ولنأخذ مثالا الأصل « ض . ر . ب » وهو يدل على حدث معين ، فإذا أضفنا إلى هذا الأصل فتحة بعد الساكن الأول وفتحه بعد الثانى وفتحه بعد الثالث صار « ضرب » وعبر عن حدوث ضرب فى الماضى من مفرد مذكر غائب . وفى هذا المثال نلاحظ اختلاط الأصول الاشتقاقية والزيادات التصريفية . كما نلاحظ أنه الكلمة « ضرب» دلت على عدد من المعانى هى الضرب والمضى والتذكير والإفراد والغيبة . كذلك يمكن استعمال هذا الأصل لتكوين عدد كبير من الكلمات الأخرى ، وذلك بإضافة زيادات مختلفة إليه ، فيمكن أن نصوغ منه الكلمة ، ضرب ويضرب ومضروب وضارب ومضرب الخ .

ويرى شليخر [1] أن هذه المراحل اللغوية تناظر المراحل التطورية فى علم الأحياء فمرحلة الانفصال تشبه المرحلة الأولى للخليقة حيث كانت الأحياء تتكون من خلية واحدة لا تتميز بكونها نباتاً أو حيوانا ، مذكراً أو مؤنثاً ، أما مرحلة اللصق فتشبه المرحلة التى كانت الأحياء فيها مكونة من عدد من الخلايا تكويناً بسيطا . أما المرحلة الثانية من مراحل اللغة فتشبه المرحلة التى تصل فيها الأحياء إلى التركيب المعقد الذى يميز النبات منها عن الحيوان ، والمذكر عن المؤنث ، وهذا النوع عن ذاك .

---

(١) أنظر Greenberg's Essays in Linguistics الولايات المتحدة سنة ١٩٥٨

ويلاحظ من كل ما سبق ما يأتى :

أولا — محاولة تطبيق نظريات التطور البيولوجى على اللغات برغم أن اللغات ليست كائنات عضوية. وقد أدى ذلك إلى قول شيلخر بأن اللغات الأم، لغات كانت موجودة بالفعل ، وهو قول لا يملك الدليل عليه . وليست اللغات الأم عند اللغويين المعاصرين أكثر من ألفاظ ونظم افتراضية تفسر العلاقة القائمة بين عدد من اللغات التى تتشابه فى الأصوات والمفردات والتراكيب إلى درجة تبرر اعتبارها منتمية إلى عائلة لغوية واحدة .

ثانياً : لا يمكن الحكم بوجود لغات فى المرحلة الأولى ولغات فى المرحلة الثانية أو الثالثة من مراحل التطور بمثل المعنى القطعى المفهوم من مراحل تطور الأحياء . وذلك لأنه لا يوجد من اللغات ما هو انفصالى أو لصقى أو اشتقاقى بالمعنى الكامل . والحق أن هذه الأمور الثلاثة ليست أطواراً تمر فيها اللغة ، وإنما هى طرق لصياغة المفردات تغلب واحدة فيها أو أكثر فى لغة أو مجموعة من اللغات . وهذا لا يمنع من أن تستعمل اللغة الاشتقاقية أسلوب اللصق أو الانفصال أحيانا .

والعربية مثلا تستعمل اللصق فى صيغة اسم المفعول فتضيف الميم المفتوحة ، وفى تصريف الأفعال فتضيف أحد حروف أنيت فى المضارع وتضيف فى آخر الأفعال الماضية تاء التأنيث وتاء المتكلم وتاء المخاطب وألف الاثنين وواو الجماعة ونون النسوة ونون التوكيد الخ . وكل هذا من قبيل اللصق ، ولا يمكن حدوث مثل هذا فى الأحياء فليس فيها توسط بين الحيوانات ذات الخلية الواحدة أو الخلايا المتعددة ، أو ذات التركيب المعقد كما يحدث فى اللغة .

ثالثاً : يلاحظ اقتصار المراحل التى تكلم عنها شليخر على اشتقاق الكلمات، وليس الاشتقاق الصرفى وحده هو كل ما يميز لغة أو عائلة لغوية عن

سواها ، فهناك إلى جانب هذا صفات أخرى يمكن أن تميز اللغات فى مجال الأصوات والتركيبات النحوية .

رابعاً — فكرة صراع اللغات وبقاء الأصلح فكرة مبالغ فيها ولا ينبغى أن تؤخذ بمعناها الحرفى ، فليس هناك بين اللغات صراع بالمعنى البيولوجى . وكل مافى الأمر أن أفراد جماعة من الجماعات يميلون أحياناً إلى هذا اللون من التعبير وأحياناً إلى ذاك . وهم قد يغالون فيما يتركون وما يأخذون فيهملون لغة ويتركون أخرى . واستعمال عبارة «لغة منقرضة» أو «ميتة» و «لغة حية» تعبير مجازى أيضاً لايمكن أن يؤخذ بمعناه الحرفى الذى يؤخذ به فى عالم الأحياء . واللغات الميتة المدونة كالهيروغليفية يمكن أن تستعمل من جديد وتصبح لغة اجتماعية فعالة ، وقد حدث هذا بالنسبة للغة العبرية . ولكن انقراض الأنواع بالنسبة للأحياء أمر مختلف تمام الاختلاف فالأنواع التى انقرضت قد مضت إلى غير رجعة .

* * *

يمكن القول بعد هذا كله بأن المدرسة الداروينية قد انتقلت باللغة من اعتبارها أمراً روحيا — أو إلهاما إلهيا — إلى اعتبارها أمراً طبيعيا . وسترى فيما بعد كيف انتقلت المدرسة النفسية باللغة مرة أخرى إلى اعتبارها أمراً عقليا . وقد حدث مثل هذا بالنسبة لكل العلوم الإنسانية .

ولما كان اللغويون الداروينيون يرون اللغة مظهراً من مظاهر الطبيعة فقد أوجبوا أن تدرس بنفس الأسلوب الذى تدرس به العلوم الطبيعية الأخرى ، كما اعتبروا لغة الإنسان مرحلة راقية من مراحل التطور تسبق لغة الحيوان ، وهذا قياس على رأى علماء الأحياء الذين يعتبرون الإنسان مرحلة بيولوجية أرقى من مرحلة الحيوان . كذلك تقتضى وجهة النظر الطبيعية هذه

وجود قوة طبيعية خارجية تؤثر فى تطوير اللغة من مرحلتها البسيطة إلى مرحلتها المعقدة . ومعنى هذا أن التطور اللغوى محكوم بقوانين ثابتة كالقوانين التى تحكم مظاهر التطور الأخرى فى الطبيعة[1] . وقد عبر فوسلر Vossler عن هذا الرأى بقوله بأن التغييرات الصوتية التى تحدث فى اللغة نتيجة حتمية لوجود قوانين طبيعية تتحكم فى اللغة وتطورها . وهذا قول متطرف يجانب الصواب .

ومع هذا فقد أفادت الدراسات اللغوية كثيراً من هذا الخطأ حيث ازداد نشاط القائلين به للكشف عن التطورات اللغوية وقواعدها ، ومحاولة تنظيمها على شكل قوانين ادعوا أنها قوانين طبيعية .

المذهب النفسى :

يحاول أنصار هذا المذهب تبرير التطور اللغوى بكل مظاهره بتطور الأحوال النفسية بين أفراد الجماعة اللغوية . وقد مر بك أن جريم قد علل التطورات الصوتية فى اللغة الألمانية بأنها نتيجة مباشرة للنزعة التقدمية التى تتميز بها سيكولوجية الشعب الألمانى، وليله إلى الحرية والتجديد. كما علل غيره تغيرات أخرى فى هذه اللغة، بأنها نتيجة لروح الرخاوة التى شاعت بين الشعب فى فترة ما . ويقول شيرر بأن تاريخ التغير الصوتى فى اللغة الألمانية انعكاس لتاريخ تطور الذوق العام عند الألمان . أما وندت فيعلل التغيرات الصوتية بأنها نتيجة للثورة الثقافية التى كانت عميقة الجذور فى نفسية الشعب الألمانى .

انظر ص ٩ من Language and Reality by Urban لندن سنة ١٩٣٩

والواقع أن هذا المذهب رد فعل للمذهب الطبيعى الذى قال به دارون ، هو رجوع إلى الروح — التى حاول دارون هدمها وإحلال الطبيعة محلها — ولكن على شكل جديد ، أطلق عليه اسم العقل .

ولما كان دارون قد بين بما لا يدع مجالا للشك أثر عوامل البيئة فى تطور الأشياء ، فإن أصحاب هذا المذهب النفسى لم يستطيعوا إنكار هذه العوامل الطبيعية ، وبهذا قالوا بثنائية الطبيعة والعقل .

رأى شتينتال: تظهر هذه الثنائية عند شتينتال Steinthal فى قوله بأن العلوم على قسمين ، علوم تهدف لدراسة الطبيعة وعلوم تهدف لدراسة الروح (أو النفس) والنوع الأخير من هذين يتطلب معرفة بالنفس الإنسانية وميولها .

والظاهر أن شتينتال قد وقع تحت تأثير آخر للدارونية ، وهو قولها بوجود قوانين عامة تحكم التطور . وقد يكون هذا هو السبب فى تجاهله للفرد وميوله النفسية وقوله بوجود سيكولوجية جماعية — أو عقل جمعى — هى التى تتمثل فيها النزعات والميول النفسية الاجتماعية .

وفى رأيه أن علم النفس الاجتماعى الذى يدرس هذه السيكولوجية الجماعية فرع من فروع الطبيعية . وهو يعنى ببيان القوانين الإنسانية العامة التى تحكم سلوك بنى الإنسان من ناحية ، ويبين فى نفس الوقت المميزات الخاصة التى تفرق بين جماعة وأخرى .

وفى رأيه أيضا أن علم النفس الاجتماعى يشبه علم النفس الفردى ، ولا فرق بين أحدهما والآخر إلا فى أن الأول يدرس النزعات الاجتماعية التى يسيطر عليها العقل الجمعى ، أما الثانى فيدرس النزعات الفردية التى يسيطر عليها العقل الفردى .

نقد شتينتال : يرفض هرمان باول مذهب شتينتال هذا ويأخذ عليه ما يأتى:

١ — يفصل هذا المذهب بين الدراسة الطبيعية والدراسة النفسية فصلا حاداً، مع أنه من الواضح أن كلا من الجانب الطبيعي والجانب النفسى فى الحياة يؤثر فى الآخر ويتأثر به . ونحن نشاهد فى حياتنا اليومية كيف تؤثر الأحوال النفسية للفرد على حياته المادية وبالعكس ، فمن الناس من يفسد القلق جهازه الهضمى مثلا، ومنهم من يسبب تشوه عضو من أعضائه له عقدة نفسية واضحة .

٢ — ليس هناك مبرر لاعتبار النزعات الاجتماعية داخلة فى نطاق العلوم الطبيعية دون النزعات الفردية .

٣ — ليس العقل الجمعى أمراً مستقلا بكيانه الخاص عن عقول الأفراد بالمعنى الذى ذكره شتينتال : وينبغى أن ننظر إلى العقل فى ضوء ما ذهب إليه هربرت من أن علم النفس هو العلم الذى يدرس العلاقات القائمة بين الأفكار بعضها وبعض ، سواء كانت هذه الأفكار لدى شخص واحد أو لدى أشخاص متعددين . ولو اتبعنا هذا المذهب لما كان هناك مبرر للقول بوجود شىء اسمه العقل الجمعى يسيطر على سلوك الجماعات ، لأنه والحالة هذه لن يكون هناك إلا عقول فردية تسلك منفردة سلوكا معيناً وتسلك مجتمعة سلوكا آخر .

٤ — إذا كان السبب فى اعتبار علم النفس الجمعى من العلوم الطبيعية هو أنه يدرس القوانين العامة التى تنطبق على جميع بنى الإنسان ، فكيف يصح ما قاله شتينتال فى نفس الوقت من أنه يدرس المميزات التى تفرق بين جماعة وأخرى ؟

أولا يعنى هذا الجزء الأخير أنه يدرس أموراً خاصة يفترض ألا تكون من العلوم الطبيعية .

مراحل التفاعل الجماعي : يرى باول أن دراسة علاقة الفرد بالجماعة تتم على المراحل الآتية :

١ — يدرك الفرد فكرة من الأفكار نشأت لديه بفضل كونه عضواً في جماعة .

٢ — يقوم بنشاط عضوى يؤثر فيما حوله من أشياء أو أدوات تعبيرية

٣ — تنتقل هذه الأشياء والأدوات إلى فرد أو أفراد سواه .

٤ — يقوم الآخرون بنشاط مادى يؤثر على بعضهم البعض تأثيراً قد يفيدهم وقد يضرهم ، ولكنه ينسجم مع مقتضيات ثقافتهم .

ولتوضيح هذه العناصر الأربعة نفترض أن قبيلة قد أغارت على قبيلة أخرى ، وأن رئيس القبيلة الثانية قد خرج إلى قومه وجمع حشودهم إلى المعركة . هذا الحدث الاجتماعى يتضمن العناصر الأربعة السابقة على ما ترى فيما يلى :

١ — العنصر الأول هنا هو رؤية رئيس القبيلة للمغيرين وإدراكه أن فعلهم هذا أمر غير مرغوب فيه . وهذا الإدراك مورث عن الجماعة التى عاش فيها .

٢ — العنصر الثانى هو خروجه إلى قومه واستعمال اللغة أو قرع الطبول ورقصة الحرب للتأثير على قومه .

٣ — العنصر الثالث هو انتقال الأصوات أو الصور المرئية لنشاطه هو إلى أفراد قبيلته وإدراكهم لها .

٤ — العنصر الرابع هو احتشاد هؤلاء الأفراد وخروجهم إلى المعركة .

ويرى باول أن علم النفس الاجتماعى بالمعنى الذى ذكره شتينتال لا يشمل هذه العناصر كلها بل يقتصر على العنصر الأول . كما يقرر أن اللغة هى أهم الأدوات التعبيرية التى تستعمل فى المراحل الثلاثة الأخيرة . وفى المثال السابق يظهر النشاط اللغوى فى حديث زعيم القبيلة إلى أتباعه وإغرائهم

بالقتال، وفى فهم الأتباع لما يقولهلهم ، والفهم أحد جوانب النشاط اللغوى. وأخيراً قد تستعمل اللغة فى العنصر الرابع حين يخرجون للقتال صائحين أو مرددين الأغانى الحماسية .

نشأة الأفكار : لاتنشأ الأفكار التى هى العنصر الأول من هذه العناصر الأربعة فى ذهن الفرد مستقلة عن تراث جماعته . وذلك لأنه بالرغم من أن تجارب كل فرد هى التى تخلق فى ذهنه أفكاره إلا أن للقيم الاجتماعية دخلا كبيراً فى الحكم على أمر ما بالخير أو بالشر وبالجمال أو القبح ، كما أن ثقافة المجتمع هى التى تحدد للفرد معالم أفكاره .

ومع هذا فينبغى أن يكون من الواضح أنه من غير الممكن للفرد أن ينقل فكرة ما إلى شخص آخر ، بل إن الذى يحدث هو أن يمر الأول بتجارب تكون لديه شعوراً ما ، وأن يمر الثانى بتجارب مماثلة تكون لديه هو الآخر شعوره الخاص به . ويربط كل منهما الشعور الذى خرج به من تجاربه بلفظ بعينه وليكن لفظ « الحب » أو « الكراهية » أو « الغيرة » الخ. وعند ما تخطر على ذهن الأول الفكرة المتعلقة بلفظ « الغيرة » مثلا ينطق بهذا اللفظ فيتذكر الثانى الشعور الذى ربطه به . والفكرة هى الرابطة بين اللفظ والشعور . ومعنى هـــذا أن لكل منهما فكرته الخاصة وأن اللفظ لم ينقل من الأول فكرته الخاصة إلى الثانى، ولكنه استدعى إلى ذهن الأخير فكرة متشابهة هى خلاصة تجاربه هو .

الربط المباشر وغير المباشر : قد يكون هذا الربط بين الشعور واللفظ ربطاً مباشراً أو غير مباشر . والربط المباشر هو الذى يحدث نتيجة تجارب الشخص نفسه . وبفضل هذه التجارب ينشأ فى نفسه الشعور . اما اللفظ فيأخذه عن الجماعة اللغوية التى ينتمى إليها . وكأننا مثلا ذاق طعم الليمون وأدرك من تجاربه الخاصة كيفية الشعور الذى ينفعل به من يذوقه .

وقد أخذنا من جماعتنا اللغوية لفظ «حامض» وربطنا بينه ربطاً مباشراً وبين تجربتنا هذه . أما الربط غير المباشر فهو الذى لا ينتج عن تجارب الشخص نفسه ، بل هو الذى ينشأ بين اللفظ وبين شعور أخذه الفرد عن جماعته . ومثال ذلك الربط ، الربط بين عبارة « انعدام الوزن » وبين الشعور أحس به الطيار الروسى جاجارين ، أو الطيار الأمريكى كاربنتر ، حين خرجت به مركبة الفضاء عن دائرة الجاذبية الأرضية . والتجربة هنا بالنسبة لى أو بالنسبة لك غير متحققة ، ومن ثم فإن الفكرة لم تنشأ لدينا بصفة مباشرة. وعلى هذا فقد أخذنا الفكرة عن جماعتنا اللغوية ، وهى قد أخذتها بدورها عن جماعة أخرى ، وربطنا بينها وبين لفظ أو عبارة أخذناها عن جماعتنا اللغوية كذلك .

ولنتأمل عبارة « انعدام الوزن » تأملا مفصلا . وسنجد أن اللفظ الأول « انعدام » يرتبط ، لدينا جميعاً ، بمدلوله ارتباطاً مباشراً ، فكلنا مر بتجارب كافية تجعله يدرك فكرة الوجود والعدم . أما اللفظ الثانى وهو لفظ « وزن » فإدراك أفراد جماعتنا اللغوية للفكرة التى يدل عليها متفاوت . ونحن ندرك بالتجارب المباشرة مدلول « الوزن » ، بمعنى وضع شىء ما فى كفة ميزان ووضع شىء آخر فى الكفة الثانية، والحكم على الجسم الأول بأنه يناظر أو لا يناظر فى ثقله الجسم الثانى. ولكن لكلمة الوزن دلالة أخرى ليست نتيجة لهذه التجربة ، وهذه الدلالة الأخرى هى كون الوزن نتيجة للجذب الواقع على الجسم من مركز الكرة الأرضية. ونحن نتساءل الآن عن التجربة التى وصلنا بها إلى هذا الفهم الخاص . والإجابة إنى لم أقم ، ولم يقم سواى من أبناء جماعتى اللغوية ، بتجارب مباشرة توحى بهذه الفكرة . والذى حدث أن عالماً انجليزياً اسمه اسحق نيوتن ، قد صرف سنين طوالا من عمره يلاحظ سقوط الأجسام المعلقة إلى الأرض ، ويجرى التجارب المختلفة ، حتى اكتشف علاقة الوزن بالجاذبية الأرضية على النحو الذى أشرنا إليه ، وقددون ، هو أو من قاموا من بعده بتجارب

مباشرة مثل تجاربه، خلاصة خبراتهم فى مؤلفات عديدة تستغرق قراءتها شهوراً طويلة. ومع أنى لم أقرأ كل هـذه المؤلفات فإنى أستعمل فى عبارة انعدام الوزن » اللفظ الثانى بالمعنى الذى تضمنته هذه المؤلفات ، رغم عدم قيامى بأية تجربة تثير فى عقلى الفكرة التى ترتبط بهذا اللفظ . والفرق الوحيد بينى حين أستعمل لفظ « الوزن » وبين نيوتن حين يستعمله ، أنى قد ربطت بين اللفظ والفكرة ربطاً غير مباشر أما هو فقد ربط بينهما ربطاً مباشراً .

والربط المباشر هو الوسيلة الوحيدة للمعرفة عند الحيوان ، أما الربط غير المباشر فهو الوسيلة التى يتحقق بها كسب المعرفة ونمو اللغة لدى الإنسان . وكلما زاد اتصال الشخص بالناس عن طريق التخاطب أو القراءة زاد مقدار ما يحقق من ربط غير مباشر بين الأفكار والألفاظ ، وبهذا يزيد حظه من الثقافة التى هى فى الواقع ألفاظ ذات مدلولات .

تحول الربط غير المباشر إلى ربط مباشر : فيما سبق يبـدو لنا من النظرة الأولى وجود تناقض ظاهر ، فنحن نقول أولا بأن الفرد هو الذى يكون أفكاره بنفسه ، ونقول ثانياً بأن نموه العقلى خاضع لتوجيه جماعته . والحق أنه لا تناقض بين الأمرين ، لأن ما يكتسبه الفرد من جماعته عن طريق الربط غير المباشر يتحول فى ذهنه هو إلى ربط مباشر ، أو بعبارة أخرى ، فإن كل فكرة يكتسبها فرد من الأفراد بطريق الربط المباشر تنتقل ، بفضل العمليات المادية الأربعة التى أشرنا إليها ، إلى بقية الأفراد من أعضاء جماعته ، ومن ثم لا يحتاج كل منهم إلى القيام بالتجارب الطويلة التى قام بها الأول . ومعنى هذا أن أهم عملية فى هذا الصدد ليست هى التجارب الطويلة التى يمر بها الفرد لاكتساب الفكرة ، بل هى اكتساب الفكرة ذاتها . ويتم هذا بتذكير الشخص بتجاربه التى تشبه التجارب التى بها الشخص الأول والتى اكتسب عن طريقها الفكرة بطريقة مباشرة .

ولعل القارىء لايزال يتذكر المثال الذى قدمناه له ، والذى صاح فيه رئيس القبيلة بقومه معلناً غارة أعدائهم عليهم . هذا الصياح أثار فى نفس كل منهم تجاربه الماضية عن مظهر العدوان ونتائجه ، ومن ثم فقد ربط كل منهم بين هذه التجارب الماضية وبين الفكرة التى نقلها إليهم زعيمهم .

وفى مثال انعدام الوزن يربط كل عضو من أعضاء الجماعة اللغوية بين الألفاظ وبين تجاربه الذاتية الماضية التى أفهمته معنى « الانعدام » ، وبين تجاربه التى أفهمته معنى « الوزن » ، وبين تجاربه التى تفهمه معنى الأعراض التى وصفها له الشخص الأول الذى عانى بخبراته جميع الأعراض المرتبطة بفكرة « انعدام الوزن » .

ويجب أن نلاحظ هنا أن التجارب المباشرة فى هذا المثال ، ونعنى بها التجارب التى ارتبطت بلفظى « الانعدام » وبمعنى « الوزن » من التجارب الشائعة التى يمر بها كل فرد فى حياته الخاصة دون فرق بين جيل وجيل . ولكن هناك نوعاً آخر من التجارب المباشرة التى ترتبط بلفظ ما ولكنها تختلف من جيل إلى آخر . ومثال هذا ماحدث بالنسبة للفظ « قطار » فى العربية القديمة والحديثة ؛ ففى العصور الماضية كان هذا اللفظ مرتبطاً بتجارب مباشرة تتلخص فى ملاحظات الأفراد لطائفة من الجمال يسير بعضها فى أثر بعض . أما اليوم فإن التجارب المباشرة التى تتصل بهذا اللفظ تتمثل فى ملاحظة طائفة من العربات التى تسير على شريط من الحديد بعضها أثر بعض . ويرتبط هذا اللفظ أيضاً بتجارب مباشرة لدى جماعة أخرى هى التى تزاول الألعاب الرياضية أو التدريب العسكرى وتتمثل فى ملاحظة أفراد يسير بعضهم فى أثر بعض . ومعنى هذا اختلاف التجارب المرتبطة بهذا اللفظ بين جيل وجيل أو بين جماعة وجماعة أخرى .

وقد يقول قائل بأن هذه العلاقات الثلاثة ، ونعنى بها علاقة اللفظ بالجمال بعضها خلف بعض وعلاقة اللفظ نفسه بالعربات أو الأشخاص بعضهم خلف البعض ، أمور متشابهة . ونحن لا ننكر هذا ولكننا نقول بأنها فى نفس الوقت مختلفة . وهذا الاختلاف هو الذى نعنيه عند ما نقرر أن معنى هذا اللفظ قد تطور من جيل إلى جيل أو من جماعة لجماعة أخرى . أما التشابه فهو العنصر الذى مكن لهذا التطور من أن يتم ، وذلك بواسطة عملية عقلية عند الأفراد تلاحظ هذا التشابه بين الدلالة الأولى للفظ والدلالة الثانية والثالثة له .

والتجارب المباشرة وغير المباشرة ، وربطها برمز من الرموز ، ليست أموراً قاصرة على اللغة ، فقد يكون الرمز لفظاً كما فى الأمثلة السابقة وقد يكون حركة معينة مثل ضم أصابع اليد وتوجيهها إلى أعلى ثم رفع اليد وخفضها ، وترتبط هذه الحركة بمعنى الأمر بالتمهل ، ومثل لبس السواد وربطه بالحزن الخ . والمثالان الأخيران مثالان لاستعمال أمور غير لغوية ، هما الحركة واللون للتعبير عن دلالة معينة .

وميدان الاستعمال الرمزى واسع متعدد الأطراف ، فهناك الموسيقى التى تبكى أو تضحك أو ترقص جماعة ما ، ولكنها لا تثير انفعالات عند جماعة أخرى ، وهناك الصور والسحر والطقوس وغيرها من الأمور التى يضمها جميعا لفظ « ثقافة » .

اللغة نظام رمزى متميز : وعلم اللغة من بين العلوم التى تعالج مظاهر معينة من الثقافة ولكنه ينفرد عن بقية العلوم الثقافية بخصائص نذكر منها ما يلى :

١ — أن مجال البحث فى الظواهر غير اللغوية متسع ومتشعب والعوامل التى تحكمه مختلفة عن العوامل الأخرى ومثال ذلك الظواهر الاقتصادية التى يتضح مدى تشعبها إذا ماعرفنا أن سبب الأزمات الاقتصادية فى طرف من العالم قد يكون اتجاها نفسيا يشيع فى طرف آخر أو خطبة سياسية أو احتمالا من الاحتمالات الكثيرة فى أى مكان فى العالم. والأمر ليس كذلك بالنسبة للغة، فبالرغم من أن جميع ظواهر الحياة الاجتماعية تطبع اللغة بطابعها إلا أن مجال البحث اللغوى محدود ينحصر فى نطاق علاقة مجموعة من الأصوات بفكرة من الأفكار. أما مصدر هذه الفكرة أو العوامل الإنسانية أو غير الإنسانية المحلية أو غير المحلية التى أوجدتها أو أثرت فيها، فهذه أمور لا تغنى الباحث اللغوى.

٢ — يمكن اعتبار الفرد نموذجا كاملا للنشاط اللغوى فى مجتمع بأسره، والأمر ليس كذلك بالنسبة للفرد فى المجالات الأخرى من مجالات الحياة الثقافية، فهو ليس أكثر من عنصر بين آلاف العناصر الأخرى. وهذه الحقيقة تجعل البحث اللغوى أكثر طواعية من البحث فى العلوم الثقافية الأخرى.

٣ — ليست التطورات اللغوية من الأمور التى يقصد المتكلمون إحداثها بصفة شعورية. واللغة بهذا تختلف عن الإنتاج الفنى كالموسيقى والتصوير، وفيه يقصد الفرد قصداً شعورياً للابتكار والتجديد. ومن ثم فإن التجديد فى اللغة لا بد أن يكون يدريجياً بسيطاً، لا يبالغ إلى درجة تخرج به عن مألوف الجماعة.

ومثل هذه المبالغة أمر ممكن فى الإنتاج الفنى. وأمام أعيننا اليوم عدد من المصورين والموسيقيين الذين يتجاهلون الجماهير فى أعمالهم الفنية، ثم لا تلبث الجماهير أن تحاول فهمهم وتذوق أعمالهم، ومثل هذا أمر لا يحدث فى اللغة.

ومن أجل هـذا فإن ما يبدو وكانه تجديد صناعى مقصود فى اللغة ، مثل ابتكار لغة الاسبيرانتو الصناعية ، لا بد أن يقوم على أساس من لغة طبيعية . ونتيجة لهذا فإن التغيير المقصود فى اللغة هو بالضرورة بسيط ومحدود مما يسهل على الباحث اللغوى تتبع مراحل التطور . ومثل هذه السهولة لا يتمتع بها من يدرس تطور القوانين أو الأديان أو الفنون أو سواها من فروع الثقافة التى تتطور تطوراً سريعاً وجوهرياً إلى درجة قد لا يرى معها الباحث الصلة بين مظهرها بالأمس ومظهرها اليوم .

مجموعات الأفكار : لعل من أعظم ما اكتشفه علم النفس هو إثبات وجود « اللاشعور » . وقد وجد علماء النفس أن كل ما يمر بالفرد من أحداث أو يزاول من أمور يترك فى نفسه أثراً يشعر به ، ثم لا يلبث أن ينساه . ولكن النسيان لا يفنى زوال الأثر تماما ، ولكنه يعنى اختزانه فى النفس بحيث لا يشعر الفرد بوجوده ، ولكنه يستطيع استدعاءه عند حدوث أمر له به علاقة . وكل نشاطنا اللغوى ينبع من ظلام اللاشعور الذى يعج بالافكار والانفعالات التى نسيناها ، والتى ترتبط بألفاظ لا تكاد تذكر حتى نتذكر هذه الأفكار والانفعالات .

وتتجمع الأفكار فى اللاشعور فى مجموعات يدعو تذكر فرد من أى مجموعة منها إلى تذكر بقية الأفراد . ولكن هذه الأفكار متداخلة ومعقدة بمعنى أن الفكرة الواحدة قد ترتبط بأكثر من مجموعة واحدة ، فالفكرة التى تدل عليها كلمة « أم » ترتبط بالفكرة التى تدل عليه كلمة « امرأة » و « مدرسة » و « سيدة » و « آدمية » الخ ، وترتبط كذلك بالأفكار التى تدل عليها الكلمات « ابن » ، « أب » ، « أخ » وبالأفكار التى تدل عليها « صاحب » و « أبو » وهكذا الخ [1] . وليس ثمة شك فى أن استعمال لفظ « أم » فى

---

(١) كما فى عبارة « أم منديل » و « أبوطاقية » فى المصرية ، وعبارة « أبو البيت » فى العراقية بمعنى « رب الأسرة » .

بعض الظروف يثير فى الذهن سلسلة من مدلولات مجموعة أو أخرى من هذه المجموعات حسب الظروف الخارجية أو اللفظية التى نطق فيها هذا اللفظ .

والواقع أن الأفكار لا ترتبط بالأصوات فحسب ، بل ترتبط كذلك بالحركات العضوية التى تنتج الأصوات . وبفضل هذا الارتباط بين هذه العناصر الثلاثة يحدث الفهم عند سماعنا للفظ ، ويستطيع المخ تحريك الأعضاء الصوتية على نحو خاص ينتج سلسلة معينة من الأصوات التى تدل على الفكرة التى طرأت على الذهن وأراد الشخص التعبير عنها .

وليس من الضرورى أن ترتبط الفكرة الواحدة بكلمة واحدة ، بل قد يحدث أن ترتبط الفكرة أو جزء من الفكرة بأكثر من كلمة ، كما قد يحدث العكس فترتبط الكلمة الواحدة أو جزء الكلمة بأكثر من فكرة . ومثال ارتباط الفكرة بأكثر من لفظ،فكرة ـ الكرم ـ عند ما نعبر عنها فى العربية باللفظين ـ طويل النجاد . ومثال ارتباط اللفظ بأكثر من فكرة الفعل ـ ضرب ـ وهو يرتبط بالأفكار الآتية ، الضرب ، حدوثه فى الماضى ، وكونهصادراًمن مفرد غائب مذكر . وهنا ارتبط اللفظ الواحد بعدة أفكار مختلفة .

كيف تتكون المجموعات : يمر الشخص طوال حياته بخبرات كثيرة يرتبط بعضها ببعض بألوان متعددة من الارتباطات . وقد يكون الربط بينفكرة وأخرى بمجرد الحدوث فى وقت واحد ، وقد يكون علاقةطبيعية بين فكرة وأخرى كعلاقة الأمومة بالبنوة ، وقد تكون العلاقة منطقية كعلاقة الصغير بالكبير ، وقد تكون مجرد خطأ يقع فيه الشخص، فيربط بين أشياء لا رابطة بينها نتيجة لوجود ظرف خارجى يساعد على الوقوع فى الخطأ ، ومثال هذا الخطأ استعمال أحد الأطفال لفظ «جامد» بمعنى «تعبان»

وهو خطأ قد يكون سببه استعمال لفظ « جامد » بمعنى « ثقيل » وربط الطفل مدلول « تعبان » بهذا اللفظ .

وعندما يحصل لدى الفرد شعور ناتج عن تجربة ما ، يهبط هذا الشعور إلى أعماق نفسه ويكون مع المشاعر الشبيهة به مجموعة دلالية نفسية ترتبط بطائفة من ألفاظ لغته أو قواعدها النحوية .

المجموعات اللغوية والمجموعات النفسية : هنـــاك إذن نوعان من المجموعات ، إحداهما مجموعات نفسية وهى طائفة من المشاعر والأفكار ، والثانية مجموعات لغوية وهى طائفة من الألفاظ والأصوات والتركيبات النحوية الخ . وبين هذين النوعين من المجموعات علاقات تجعل أى فرد من أفراد مجموعة منها يدعو إلى الذهن فرداً يناظره من أفراد مجموعة من المجموعات الأخرى .

ويجب أن نلاحظ أن هناك فرقا بين هذين النوعين من المجموعات ، فالمجموعات النفسية مجموعات فردية تختص بكل فرد بذاته ، أما المجموعات اللغوية فهى مشتركة بين جميع أفراد الجماعة اللغوية .

كيف يتم التطور : هناك فرق آخر بين المجموعات النفسية والمجموعات اللغوية ، وذلك هو أن المجموعات النفسية دائمة التغير ، فمنها ما يضعف لقلة استعماله أو لعدم إمداده بالحيوية النفسية اللازمة لوجوده وجوداً بارزاً . ومنها ماينقرض ، ومنها مايتجدد ، ومنها ما يتسع مداه ومنها ما يقل مداه وهكذا . وكل هـذه التطورات التى تلم بالمجموعات النفسية أمور خاصة بالفرد تخضع لظروفه هو دون سواه .

ومع هذه الخصوصية فإن مما لا شك فيـــه أن اشتراك الفرد مع بقية أفراد جماعته فى كثير من الظروف وتبادله وإياهم الانفعالات

على النحو الذى سبقت الإشارة إليه ، يوجد نوعاً من التشابه بينه وبينهم . ومن هنا فإن أى تغير فى الأنواع النفسية لدى أى فرد يكون له آثار مباشرة هى :

أولا — تأثيره على المجموعات اللغوية التى تقابل هذه المجموعات النفسية وذلك نظراً لارتباط هذه المجموعات بتلك .

ثانياً — تأثيره على المجموعات النفسية لدى سواه من الأفراد ، وذلك بسبب استعمال مجموعاته اللغوية استعمالا مختلفاً ، حتى تتلاءم مع الاختلاف الذى حدث فى مجموعاته النفسية .

ثالثاً — تأثره بما يحدث لدى سواه من تغيرات فى مجموعاتهم النفسية .

رابعاً — الانتهاء من هذا التأثير المتبادل إلى وضع جديد تسير عليه الجماعة فى استعمال مجموعاتها اللغوية .

والخلاصة أن هذا المذهب النفسى يتميز بأمور ثلاثة هى :

(١) ثنائية الأنواع اللغوية والنفسية عند كل فرد .

(٢) اعتبار التطور عملية نفسية فردية دائمة .

(٣) القول بأن تطور لغة الجماعة ليس أكثر من عملية انسجام بين ما يحدث من تطور فى لغة أفراد الجماعة اللغوية .

دور الفرد بين الطبيعيين والنفسيين :

يتضح مما تقدم أن النفسيين يعتبرون التطور اللغوى عملية فردية أولا وقبل كل شىء تليها عملية اجتماعية هى توحيد الاستعمال اللغوى لدى مختلف الأفراد . أما الطبيعيون فيرون أن اللغة كائن حى organism له طبيعته الذاتية وأن ما يحدث فيها من تطور أمر لا صلة له بالمتكلم ، وهم يشبهون اللغة بالشجرة التى تسقط أوراقها مع الخريف وتظل جرداء عارية طوال الشتاء ولكن طبيعتها الداخلية لا تلبث أن تنبثق بالورق الأخضر عندما تنضج فى داخلها عوامل الدورة الجديدة من دورات الحياة .

ومن ثم فهم يرون التطور فى اللغة ظاهرة حتمية لها اتجاهاتها المحددة . والأمر لا يعدو أن يكون انتظاراً لمرور فترة تنضج خلالها العوامل الداخلية فى اللغة فلا يلبث التطور أن يحدث، أراد الأفراد أو لم يريدوا(١) .

وكل لغة تخضع فى تطورها لطبيعتها التى تختلف عن طبيعة سواها من اللغات كما تختلف طبيعة شجرة البرتقال عن طبيعة شجرة التفاح ، اختلافا يجعل كلا منهما تؤتى ثمارا مختلفة عن ثمار الأخرى . والأمر بالمثل فى اللغات فتطور اللهجات العربية مثلا يسير فى نطاق الأصول الثلاثية للكلمة وهو نطاق لا تعترف به اللغات الأخرى ولا ترعاه ، والأصل الثلاثى عند اللغويين الطبيعيين مظهر من مظاهر طبيعة اللغة العربية .

المذهب الاجتماعى :

لعل الفيلسوف هوبز (القرن ١٦ — ١٧) أول من فكر فى الجماعة باعتبارها شخصية مستقلة عن الأفراد لها كيانها وإرادتها(٢) . وعن هوبز أخذ لوك (القرن ١٧) وروسو (القرن ١٨) فكرة العقد الاجتماعى وفكرة العقل الجمعى أو الإرادة الجمعية .

وقد لعبت هاتان الفكرتان دوراً إيجابياً فى تفكير اللغويين . أما فكرة العقد الاجتماعى فقد قال بها عدد من اللغويين فى سياق بيان نشأة اللغة الإنسانية ، فقرروا أن اللغة نتيجة اصطلاح وتواضع بين أفراد الجماعة . ولكن موضوع نشأة اللغة الإنسانية بصفة عامة ، ونظرية العقد الاجتماعى ومحاولة تطبيقها على اللغة بصفة خاصة لم تلبثا أن سقطتا من دائرة اهتمام اللغويين . وقد كان لفكرة العقل الجمعى شأن آخر، إذ لا تزال

---

(١) انظر الفصل الثانى من كتابنا « اللغة بين الفرد والمجتمع » ص ٣٤ الطبعة الأولى .

(٢) ص ٧٢٤ من كتاب B.Russel, History of Western Philosophy لندن سنة ١٩٤٨ .

حتى يومنا هذا مجالا للأخذ والرد والتفسير فى ميدان علم الاجتماع وعلم اللغة .

دى سوسير :

يعتبر فرناند دى سوسير زعيم المدرسة اللغوية الحديثة . وليس من المبالغة فى شىء أن نقول بأنه يمثل نقطة التحول فى الدراسات اللغوية بأسرها إذ أنه من النادر أن تجد اتجاها من الاتجاهات المعاصرة فى الدراسات اللغوية لا يرتبط بسبب أو آخر برأى من آراء دى سوسير . وليس ثمة من شك فى أن مفهومات بعض المبادىء التى قررها قد تغير فى عصرنا إلى حد قد يغاير تماما أفكار دى سوسير ، ولكن الأمر الذى لا شك فيه أن هذا التغير لم يكن إلا تدرجا طبيعيا لأفكاره ذاتها .

ودى سوسير فى نفس الوقت يمثل مرحلة تطوير ، إن صح أن يسمى نقض ما سبقه من اتجاهات تطويرا ، لمن سبقه . وقد رأينا كيف حاول شتينتال تطبيق نظريات علم الاجتماع — أو علم النفس الاجتماعى كما كان يسميه — على علم اللغة . وقد قبل دى سوسير العلاقة بين علم الاجتماع وعلم اللغة باعتبار اللغة ظاهرة اجتماعية . ومن ثم فانها كبقية الظواهر الاجتماعية تخضع للتغير المستمر . ومع هذا فالدراسة اللغوية دراسة لها مبادئها ومشاكلها التى تختلف بها عن الدراسات الاجتماعية الأخرى .

وقد كان علم اللغة العام حتى عهد دوسير واقعاً تحت سيطرة الدراسات التاريخية . وكان الهجوم على المدرسة اللغوية القديمة قد أصبح شعار النزعة الجديدة . وقد رأى دى سوسير أن سابقته ومعاصريه قد بالغوا فى الاتجاه التاريخى حتى كادوا يهملون الدراسة اللغوية بمعناها الحقيق ، وهى الدراسة الوصفية التى تنفذ إلى أعماق ذهن المتكلم . ومن هنا حاول أن يخلق نوعا من التوازن بين الاتجاه التاريخى والاتجاه الوصفى الواقعى . وهو يأخذ على أصحاب الاتجاه التاريخى ما يأتى :

١ — أنهم قد أهملوا — إلى حد كبير — دراسة اللغة من واقع نشاط متكلميها الذين يعيشون بين ظهرانيهم . ومن ثم فقد حرموا أنفسهم من دراسة هذا الجانب الحى .

٢ — إنهم كثيراً مايدخلون العوامل التاريخية فى أحكامهم على اللغة الواقعية وهذا يجر الباحث إلى كثير من الخطأ ، « فالتسلسل التاريخى للحائق اللغوية لا وجود له من وجهة نظر المتكلم . الذى يواجه وضعاً لغوياً ثابتاً . . . . ويستطع الباحث ولاشك أن يصل إلى أعماق ذهن المتكلم مع تجاهل ماضيه اللغوى تجاهلا تاماً » .

٣ — إن الدراسة اللغوية المقارنة ، وهى أساس الدراسة التاريخية ، لاتنتهى بنا إلى صورة واقعية للغة فى عهدها القديم ، بل إلى مجرد افتراضات لما كانت عليه هذه الصورة . ومثل هذه الأبحاث عرضة للخلط والتشويش .

ومن هنا يقرر دى سوسبير أن مذهب النحاة القدامى كان سليما فى حد ذاتة ، حيث كانوا يهدفون دائماً إلى تحرى واقع اللغة ، ولايفرقون فى الجرى وراء الخيال الذى يطمح بهم إلى محاولة تصور الأصل الذى كانت عليه . ومن ثم فقد كانوا أكثر واقعية من أصحاب المدرسة المقارنة . « ولكن هذا لايعنى أنهم قد طبقوا مبادىء الدراسة الوصفية ، فليس ثمة من شك فى أنهم قد أهملوا دراسات قطاعات لغوية كاملة[(١)] ، كما كان هدفهم تعليميا normative وأن همهم الأول كان وضع القاعدة ومن هنا قل اهتمامهم بتسجيل الحقائق اللغوية مهما تنوعت . وكذلك كان اهتمامهم بالصيغ المكتوبة لا بالصيغ الحية المنطوقة التى تمثل صفات من النشاط اللغوى لاتسجلها الكتابة[(٢)] .

(١) يعنى اللهجات غير الأدبية .

(٢) أنظر ص ٧٦ وما بعدها من الترجمة الانجليزية لكتابه Course in General Linguistics طبعة نيويورك ١٩٥٩

ومن أجل هذا فقد قال دى سوسيير ، بضرورة الازدواج فى دراسة اللغة فلا ينبغى أن يقنع الباحث بدراسة الأصول التاريخية كما فعلت مدرسة المقارنة أو بدراسة النصوص اللغوية المكتوبة كما فعل النحاة الأقدمون ، بل لابد من أن تكون الدراسة شاملة للجانبين معاً ، ولابد فى نفس الوقت من أن تتلافى ما وقع فيه النحاة الأقدمون من الأخطاء المنهجية التى أشرنا إليها .

ويقرر دى سوسيير بأن هذا الازدواج فى الدراسة ضرورة منهجية فى كثير من العلوم ، فنى علم الفلك يتحتم أن ندرس مدار الأفلاك ونشاطها الواقعى وهذا هو الجانب الوصفى ، كما ينبغى فى نفس الوقت أن ندرس التغييرات التى مر بها النظام الفلكى . والأمر كذلك بالنسبة لدراسة القانون أو الاقتصاد أو سواهما . ويقسم دى سوسيير العلوم إلى قسمين ، علوم لايدخل فى اعتبارها عنصر القيم مثل العلوم الطبيعية ، وعلوم تقوم بصفة رئيسية على هذا العنصر .

ولابد للعالم الذى يكون للقيم فى دراسته اعتبار ، أن يحرص على تبين الفرق بين دراسة نظام القيم فى ذاته ، وبين دراسة القيم بالنسبة لعنصر الزمان(١) . وعلم اللغة من هذا النوع من العلوم . ولكن القيم فى الدراسات اللغوية قيم مجردة لايحددها شىء سوى مجرد العلاقات المؤقتة التى بين بعضها وبعض فى إطار النظام system .

ونود أن نتوقف هنا قليلا لنوضح بالمثال مايعنيه دى سوسيير بهذا . فى اللغة العربية الفصحى أدوات متعددة للنفى تتحدد قيمة كل منها بالنظام الذى توجد فيه لا بمجرد دلالتها على النفى .

ومن الكلمات الدالة على النفى «ليس» ، ومعناها النفى ، أما قيمتها فإن الذى

---

(١) دراسة نظام القيم هى الدراسة المتعاصرة ودراسة القيم من وجهة النظر الزمانية هى الدراسة المتعاقبة .

يحددها هو وجودها داخل نظام تركيبي يعرف فى النحو العربى بالنواسخ الفعلية . وفى هذا النظام تقوم « ليس » بدور يماثل دور « كان » من حيث رفع الأول ونصب الثانى ، ولكنها تستعمل فى الجمل المنفية بينما تستعمل « كان » فى الجمل المثبتة . كما أنها من ناحية أخرى وحدة فى نظام الزمن temporal system وهى تقابل فى هذا النظام وحدة أخرى هى الصفر حيث أن الجملة الإسمية المثبتة الدالة على الحال لاتحتوى على غير عنصرى الإسناد مثل (محمد قائم) أما الجملة الإسمية المنفية الدالة على الحال فإنها تضيف إلى هذين العنصرين « ليس » .

وهذا يعنى أن قيمة «ليس» تتحدد بأنها تشترك فى نظامين تركيبيين هما :

(ا) نظام الإعراب وهى هنا تقابل « كان » و « ظل » إلخ . وتختص بالجملة المنفية .

(ب) نظام الزمن وهى هنا تقابل «لم» و «لن» و «سوف» والسين وبعدهما « تكون » كما تقابل « كان » إلى جانب وحدة صفرية أخرى هى خلو الجملة الإسمية من هذه الثلاثة جميعاً . وهكذا يكون النظام الزمنى فى الجملة الإسمية كالآتى :

١ — الجملة الإسمية المثبتة فى الحال — الوحدة صفر

٢ — الجملة الاسمية المنفية فى الحال — الوحدة ليس

٣ — الجملة الاسمية المثبتة فى الماضى — الوحدة كان

٤ — الجملة الاسمية فى الماضى — الوحده { ما كان / لم يكن }

إلخ .

وكذلك يمكن أن تتصور أن « لم » و « لن » كلمتان معناهما النفى وتشتركان فى النظام الزمنى للجملة الفعلية وهكذا . وقيمة « ليس » — أى كونها أداة إعراب أو أداة زمن ، وقيمة كل من « لم » و « لن » —

أى كونهما أداتى زمن ، أمر مكتسب من مجرد وجودهما فى إطار النظام الزمنى أو النظام الاعرابى . وليس أى من هذين النظامين مرتبطا بالواقع الخارجى ارتباطاً لاينفك ، فمن الممكن أن يتغير النظام فلا يصبح لهذه الكلمات القيمة التى ذكرناها لكل منها . وقد حدث هذا بالفعل فى اللهجات الحديثة حين انقرض نظام الاعراب فسقطت هذه الوحدات من الاستعمال .

هذا هو مايعنيه دى سوسير بقوله بأن علم اللغة علم يدرس قيما مجردة لاتكتسبها الكلمة إلا باعتبارها وحدة داخل نظام a unit within a system لاباعتبارها أمراً يرتبط بأمر خارجى آخر .

وهناك علوم أخرى كالاقتصاد ترتبط القيمة فيها بالواقع الخارجى ارتباطاً طبيعياً ، فالاستهلاك والانتاج وغريزة الاقتناء والميل إلى التخزين عند قلة السلع إلخ كلها أمور طبيعية خارجية توجد فى كل مجتمع وفى كل عصر وترتبط بعنصر القيم التى يعالجها علم الاقتصاد . وهذا الارتباط الطبيعى يجعل للقيم الاقتصادية ركيزة ثابتة .

ومن هنا يوصى دى سوسير عالم اللغة بعدم الخلط بين الدراسة التاريخية والدراسة الوصفية ، وذلك لأن العناصر اللغوية التى كانت ذات قيمة فى وقت ما ، لا يمكن أن تحتفظ بقيمتها فى عصور متوالية . ومن هنا فإنه من اللازم دراسة النظام التركيبى فى كل عصر على حدة دون أن نقع فى خطأ التأثر فى الحكم على هذا النظام أو على قيم وحداته بما كان عليه النظام التركيبى للغة نفسها فى عصور سابقة .

ماهى اللغة :

من الممكن أن نرجع ظواهر اللغة فى وقت ما إلى عناصر موروثة وعناصر مبتكرة . والعناصر الموروثة هى التى يسميها دى سوسير Langue أو لسان ويعنى بذلك لغة جماعة بعينها . أما العناصر المبتكرة فتتمثل فى الكلام Parole . واللغة بمعناها الإنسانى Langage ظاهرة عامة تتمثل فى

هذين العنصرين بجتمعين . واللسان — أو لغة جماعة معينة — مجموعة من الرموز يتلقاها الفرد من الجماعة التى يعيش فيها عن طريق السماع . أما الكلام فإنه مجموعة من الأصوات التى تمثل نشاط الفرد باعتباره متكلما . ووحدة الكلام الجملة أما وحدة اللسان فهى النموذج . ومن ثم فإن اللسان ليس مجرد مجموعة من المفردات ولكنه بصفة رئيسية نظام يشمل الرموز والنماذج .

ودى سوسيير هنا يقدم لنا مفهومات هامة ثلاثة هى الرمز والنموذج والنظام . ولابد لنا قبل أى استطراد أن نوضح مفهوم كل منها :

(ا) الرمز : يرى دى سوسيير أن هناك أموراً ثلاثة يجب أن يتميز بعضها عن البعض . هناك أولا الموجود الخارجى ولنفرض أنه النبات الخشبى المعروف الذى نسميه نحن شجرة ، وهناك اللفظ ذاته وهو مجموعة من الأصوات التى نطقت أو تنطق فعلا والتى هى بهذا الاعتبار أمر واقعى لا ذهنى . وهناك ثالثاً صورة ذهنية ذات شقين لدى كل من أبناء لغتنا ، أما شقها الأول فهو صورة هذا الموجود الخارجى الذى يطلق عليه لفظ شجرة وأما شقها الثانى فهو صورة اللفظ نفسه التى نستطيع تمثلها لو نظرنا إلى كلمة « شجرة » مكتوبة دون أن ننطق بها . وأول هذه الأمور الثلاثة هو المدلول أى الموجود الخارجى وثانيها هو الدال أى اللفظ وثالثها هو الرمز أى الصورة الذهنية المركبة من شقين شق يمثل المدلول وشق يمثل الدال .

(ب) النموذج هو الطريقة التى نرتب بها الأصوات لإنتاج صيغة بعينها كطريقة ترتيب الأصول الثلاثة فى العربية لتكوين صيغة الماضى أوصيغة اسم الفاعل مثلا أوالطرق التى نرتب بها الألفاظ لنكون جملة خبر أو جملة نفى إلخ . ويجب أن نؤكد هنا أننا نعنى بالنموذج طريقة تركيب الأصوات والألفاظ لا الأصوات ولا الألفاظ نفسها .

وفى رأينا أن النموذج رمز من نوع خاص تتحقق فيه الثنائية الذهنية التى أشار إليها دى سوسير . وذلك لأننا فعلا نستطيع أن تصور الطريقة التى تنظم على نسقها الأصوات لتكوين صيغة ما وأن نتصور فى نفس الوقت مدلول هذا النموذج من حيث أنه مفيد للزمن الماضى أو للحدث وفاعله أو الحدث ومفعوله إلخ . ومن أجل هذا فسنستعمل لفظ الرمز ليشمل المفهومين معاً عندما نتعرض للحديث عن النظام .

(ج) النظام ، النظام مجموعة من الوحدات الصوتية أو غير الصوتية تقوم بينها علاقات . ولتفسير ذلك نقول بأن الرموز منفردة تدل على معان جزئية لاتتجاوز الذوات التى تشير إليها ؟ فلو كتبت الرقم ٥ أو الرقم ٧ منفرداً لما كان لأيهما دلالة تزيد على مفهوم هذا الرقم ذاته . ومن الناحية اللغوية لو قلت « محمد » أو « كتاب » لما تجاوزت الدلالة مفهوم هذه الذات أو تلك . ولكن لو كتبت الرقمين السابقين هكذا « ٥ × ٧ » لكان هناك دلالة أكثر من دلالة كل من « ٥ » و « ٧ » . وهذه الدلالة الزائدة تبين العلاقة بين « ٥ » و « ٧ » فى الحالة المشار إليها ، وهى أن إحداهما معامل تكرار للأخرى . أما لو كتبت الرقمين هكذا « ٥ + ٧ » لكانت هناك علاقة أخرى بين الرقمين هى أن الأولى قدر يضاف لقدر الثانية . وقد عبرنا رمزيا عن هاتين العلامتين الرياضيتين + و × .

واللفظان « محمد » و « كتاب » كما سبق لا علاقة بينهما ، ولكننا لو وضعناهما على هذا الترتيب « كتاب محمد » لكانت بينهما علاقة نسميها الإضافة . وهذه العلاقة علامة مادية تتمثل فى أمرين هما أسبقية الاسم النكرة على اسم يليه ووجود حالة الجر فى الاسم التالى . ومن ثم فإن لدينا ثلاثة أمور هى الوحدات والعلاقات والعلامات .

واللغة مجموعة من النظم التى تتكامل ويتداخل بعضها مع بعض .

أما تكاملها فمثاله التأكيد فى الأفعال والتأكيد فى الأسماء ولكل منهما وحداته وعلاقاته ومنهما معا يتكون نظام أعلى هو التأكيد فى العربية . أما التداخل فيظهر فى العربيـــة فى تداخل النظام الإعرابى مع نظام التعبير عن الزمن . ونحن نعرف أن لبعض أدوات جزم الفعل ونصبه وظائف زمنية . ومن المعلوم أن التعبير عن المضى يكون بصيغة الفعل الماضى وعن الزمن الحاضر يكون بصيغة المضارع . ولكن صيغة المضارع تدل على المضى إذا جزمت بلم . ومعنى هذا إن « لم » تلعب دورين فى نظامين مختلفين نظام الإعراب ونظام الزمن . ولو تابعنا دراسة الزمن على هذا النحو لتكشف لنا أن هناك نظماً أخرى كالنفى والشرط لها بنظام الزمن علاقة بينة(١) .

العلاقات المتعاقبة والعلاقات المتعاصرة(٢) :

نتساءل الآن عن طبيعة العلاقة التى تقوم بين الوحدات التى تكون نظاما . ولكن لابد للإجابة عن هذا السؤال من توضيح الفرق بين نوعين مختلفين من العلاقات التى يمكن أن تقوم بين الأشياء . لنأخذ على سبيل المثال علاقتك بزميلك وعلاقتك بجدك الخامس الذى كان يعيش منذ قرنين من الزمان ، وسنجد أن العلاقة الأولى علاقة تجمع بين وحدتين متحدتان فى الزمان أما العلاقة الثانية فليس بين الوحدتين المرتبطتين بها

---

(١) بينا تداخل هذين النظامين فى ص ٦١ـ٦١

(٢) يسميها دى سوسير synchonique diachronique, . وكل من الكلمتين مكونة من جزئين Ghronique وهى مأخوذة من الكلمة اللاتينية « Cronas » بمعنى « زمن » وقبلها syn فى الأولى وهى بمعنى « مع » و dia فى الثانية وهى بمعنى « خلال » . وبذلك يكون معنى الأولى « معا فى نفس الزمن » أو « متعاصر » ومعنى الثانية « خلال الزمن » أو « متعاقب » . وقد كنا نسمى هاتين العلاقتين من قبل بالعلاقات الوصفية والعلاقات التاريخية وهى تسمية غير دقيقة . وقد عدلنا عن هاتين التسميتين إلى تسميتها بالعلاقات المتعاقبة والعلاقات المتعاصرة .

اشتراك فى نفس الزمان بل بينهما تعاقب . ومن أجل هذا تسمى العلاقة الأولى علاقة تعاصر والثانية علاقة تعاقب .

وعلاقة التعاقب لا يمكن أن تكون أساسا لتكوين نظام بين الوحدات ومن ثم فإنه لا يمكن أن تكون علاقتك بجدك الخامس أساسا لتكوين نظام متعاصر كلجنة علمية مثلا أو فصل دراسى . وذلك بالعكس من علاقتك بزميلك وهى علاقة تعاصر تصلح أساساً لتكوين مثل هذا النظام . ومن الواضح أنك أنت وزملاؤك تكونون النظام الذى نطلق عليه « الفرقة الدراسية » ، وهو ما لا يمكن أن يتحقق بينك وبين جدك الخامس ولو كان فى عصره طالبا بنفس الفرقة فى نفس الكلية أو المعهد .

ويحذر دى سوسير من الخلط بين هذين النوعين المختلفين من العلاقات ويرى أن علاقة التعاقب أساس لدراسة تاريخ اللغة ، أما علاقة التعاصر فإنها أساس لدراسة نظم اللغة التركيبية ، أى قواعدها . ومن ثم فهو يعيب على من يقول كما يقول بعض النحاة بأن لأصل الكلمة دخلا فى إعرابها . ومثل هؤلاء كمن يحكم عليك بالأمانة لأن جدك الخامس كان شيخا بالأزهر ، والواضح أن الأمانة صفة تكتسبها من علاقتك بمن يعاصرونك لا من علاقتك بأجدادك الغابرين .

واللغة مجموعة من الوحدات التى تربط بينها علاقات تعاصر ، وإن اختلفت كل وحدة منها عن بقية الوحدات من وجهة نظر العلاقات المتعاقبة واللغة فى عمومها تشبه « حفنة قمح » والعلاقة القائمة بين حباتها تختلف اختلافا جوهريا عن العلاقة القائمة بين فروع الشجرة . إذ أن الرابط بين كل من الحبات وسواها من حبات حفنة القمح هو مجرد التجاور أما فروع الشجرة فالعلاقة بينها علاقة المصدر والأصل .

وهكذا يمكن القول بأن العلاقات المتعاقبة لكل من حبات حفنة القمح

تختلف عن تلك التى توجد لكل من فروع الشجرة ومن الممكن أن تكون إحدى حبات الحفنة من استراليا وسواها من السودان وأخرى من كندا وأخرى من مصر وهكذا . أما العلاقات المتعاقبة لكل فرع من فروع الشجرة فستنتهى بها جميعاً إلى أصل واحد .

ليس من المحتم أن تكون العلاقات المتعاقبة بين الوحدات التى تكون النظم اللغوية تؤدى بها إلى وحدة الأصل التاريخى . وفى لهجة كالمصرية نجد الكلمة « أوده » وهى تركية الأصل بجانب الكلمة « حلوم » وهى مصرية قديمة والكلمة « موتور » وهى أوروبية والكلمة « كتاب » وهى عربية . كذلك تجد فى هذه اللهجة ياء النسب فى مثل « مصرى » والمقطع « جى » الذى يستعمل للنسب فى مثل « عربجى » و« جزمجى » والأول من هذين المقطعين عربى الأصل والثانى تركى الأصل .

الاختلاف المكانى :

فرق دى سوسير بين العلاقات المتعاقبة (أو التاريخية) والعلاقات المتعاصرة (أو النظامية) والفرق بينهما بطبيعة الحال فرق فى عنصر الزمان ومن الممكن أن يكون الفرق فى عنصر المكان ، فقد تكون هناك علاقة بين وحدتين متحدتين زمانا ومكانا ، وقد تكون هناك علاقة بين وحدتين متحدتين زمانا لا مكانا . وسيترتب على هذا الخلاف أمر جوهرى لا يمكن إغفاله فمثلا من بين الوحدات القاموسية فى اللهجة المصرية الكلمة « رجل » وتكتب صوتيا هكذا (ر ا ج و ل) [1] وهذه الوحدة القاموسية (أو الكلمة) ذات علاقة ببقية الوحدات القاموسية القاهرية الأخرى مثل « ولد » و« بنت » و« مرة » و« ست » إلخ حيث تكون جميعاً ما نسميه

---

(١) أنظر الرموز الخاصة بالأصوات فى كتابنا « العربية ولهجاتها » ٢٠٢ والجيم هنا صوت انفجارى وهو مجهور وانظر أيضا كتابنا « أصوات اللغة »

بقاموس اللهجة القاهرية . وهذه الوحدات متحدة فى الزمان ضرورة أنها مفردات متعاصرة ، ومتحدة فى المكان حيث أنها كلها قاهرية .

ومن بين الوحدات القاموسية فى اللهجة السورية الوحدة (أو الكلمة) « ر ا ج و ل »[1] . ومن الوحدات القاموسية فى لهجة الصعيد رجل (ر ا ج و ل)[2] . وليس ثمة من شك فى وجود علاقة بين الكلمة القاهرية والسورية والصعيدية (ر ا ج و ل — ر ا ج و ل — ر ا ج و ل) وهى كلمات متحدة فى الزمان ولكنها مختلفة فى المكان . ولا يمكن أن تكون علاقة « رجل » المصرية بالكلمة « رجل » السورية كعلاقة « رجل » المصرية بالكلمة « ولد » و « بنت » المصرية . والعلاقة الأولى علاقة النوع بأفراده أما الثانية فعلاقة نوع بنوع آخر . أو بعبارة أخرى فإن « رجل » المصرية و « رجل » السورية أو الصعيدية صور مختلفة لأمر واحد . وهو ما لا يمكن القول به بالنسبة الكلمتين « رجل » و « ولد » فى لهجة القاهرة .

والاختلاف المكانى هو الأساس التى يقوم عليه نوع آخر من الدراسة اللغوية تعرف باسم الجغرافيا اللغوية . ومهمة هذه الدراسة تتبع الأشكال المختلفة التى تظهر فيها الوحدة اللغوية (سواء كانت قاموسية أو صوتية أو نحوية أو صرفية) فى مختلف أنحاء الوطن اللغوى الشامل . وهو فى هذا المثال البلاد التى تتكلم اللغة العربية مهما اختلفت لهجاتها . ودراسة اللهجات هى فى الواقع دراسة للجغرافيا اللغوية أو نتاج لها .

---

(١) هذه الجيم « ج » صوت احتكاكى صلب مائى مجهور — أصوات اللغة ٢٠٨

(٢) الجيم هنا صوت انفجارى صلب مجهور — أصوات اللغة ص ٢٠٩

الدراسة الوصفية[1] والدراسة المعيارية[2]

هذان نوعان من الدراسة يلح دى سوسير كذلك على عدم الخلط بينهما . وليس الفرق بينهما فرقا فى طريقة البحث ولكنه فى المادة التى يختارها الباحث، فالمادة التى تجرى عليها الدراسة الوصفية مادة تجمع دون اختيار تعبير والبعد عن تعبير آخر لأنها لا تدخل فى اعتبارها كون هذا التعبير أو ذاك مستهجنا أو غير مستهجن ، وإنما تتحرى أولا وقبل كل شىء كون التعبير مستعملا أو غير مستعمل . الدراسة الوصفية دراسة الواقع كما هو بصرف النظر عن القيمة التى يربطها به الناس .

والدراسة المعيارية على العكس من هذا تنتخب مادتها من بين الوقائع اللغوية الكثيرة وتتحرى أن تكون هذه المادة محافظة على مستوى معين يحظى برضى الطبقة المثقفة . وهذا المستوى هو ما يطلق عليه مستوى الصواب[3] . ومثال هذا العربية الفصحى وهى بأصواتها وقواعدها تعتبر معياراً ، فالتعبير العربى المقبول هو الذى يبلغ هذا المستوى كاللغة التى أكتب لك بها الآن ، والتعبير غير المقبول هو الذى ينزل دونه كلغة الأميين .

وهدف الدراسة الوصفية كما هو واضح هو تحرى الحقيقة بصرف النظر عما إذا كانت مرغوبا فيها أو مرغوبا عنها ومن ثم فانها تعنى بدراسة العربية الفصحى باعتبارها نماذج للغة التى ترتضيها الطبقة المثقفة وتعتبرها مقياسا الصواب لأن هذه اللغة — رغم ما فيها من تدخل إرادى — تمثل ولا شك ظاهرة لغوية لها قيمتها . وهى تعنى فى الجانب الآخر بدراسة أية لهجة مستهجنة لاترتضيها خاصة المجتمع دراسة لايقصد بها توجيه الناس إلى

---

(١) descriptive (٢) normative

(٣) انظر باب الصواب والخطأ فى كتابنا اللغة بين الفرد والمجتمع .

استعمالها، بل يقصد بها المعرفة المجردة بالاتجاهات التى استقرت عليها وطبيعة العلاقات بين وحداتها .

الدراسة الوصفية إذن هى دراسة الوحدات والعلاقات التى توجد فى أحداث لغوية واقعية سواء كانت هذه العلاقات تاريخية أو متعاصرة[1] . والدراسات المعيارية من ناحية أخرى دراسة ذات هدف عملى هو تدريب الناس على التزام الطرق التعبيرية التى تعتبر صواباً وتجنب الطرق التى تعتبر خطأ . ومثل هذا التفريق لا تعيره الدراسة الوصفية اهتماماً كبيراً طالما كانت الحقائق التى تدرس تمثل أحداثاً لغوية صادرة عن أبناء الجماعة اللغوية .

الدراسة الأسلوبية :

هناك دراسة أخرى أشار إليها دى سوسير وهى دراسة مقارنة تكشف عما بين عدد من اللغات التى لا تنتمى إلى عائلة واحدة من شبه فى التركيبات . ولم يشر دى سوسير لهذه الدراسة غير إشارة عابرة . وقد عرفت هذه الدراسة فيما بعد باسم الدراسة الأسلوبية stylistic .

التطور اللغوى عند دى سوسير :

تتضمن فكرة التطور عند النحويين المحدثين New Grammarians عدداً من المظاهر هى (١) التطور الصوتى (٢) المحاكاة analogy (٣) القرض (٤) عمليات ثانوية مثل الابتكار وامتزاج الصيغ وانقسامها والانقراض الخ . وقد تحدث دى سوسير عن المظهرين الأولين وحدهما

---

(١) يلاحظ القارىء هنا أننا قد عدلنا عن المفهوم الذى قدمناه فى كتابنا « أصوات اللغة » لعبارة « الدراسات الوصفية » . وقد استعملنا هنا للدلالة على مفهوم هذه العبارة عبارة « الدراسات المتعاصرة » وهى نقيض « الدراسات التاريخية » أما « الدراسة الوصفية » فهى هنا نقيض « الدراسة المعيارية » .

وأولى أعظم اهتمامه للأول منهما وهو التطور الصوتى . ومن رأيه أن التطور فى عمومه يرجع بصفة أساسية إلى التطور فى الأصوات .

ويقرر دى سوسيير أن كل تطور لغوى يمثل عملية مستقلة عن سواها من العمليات التطورية ويعنى بهذا أمرين :

١ — أن التطورات اللغوية خاصة ليست عامة .

٢ — أنها ليست منتظمة .

أما عدم عمومها فقول يناقض ما قاله دى سوسيير فى أكثر من موضع ومن هنا لا بد من تفسيره تفسيراً خاصاً يزيل هذا التناقض، ويرى الأستاذ رولون س . ويلز[1] ، أنه يعنى بعدم عموم التطورات اللغوية أن التغير يكون فى صفة خاصة من صفات النوع كله وهذا معنى الخصوص . أما العموم الذى ينفى دى سوسيير وجوده فهو أن يعم التغير جميع الصفات الموجودة فى كل فرد من أفراد النوع . ولتوضيح هذا الرأى نقول مثلا بأن الأصوات الأنفية هى :

١ — الصوت الأنفى الشفوى الثنائى المجهور .

٢ — الصوت الأنفى الشفوى الأسنانى المجهور .

٣ — الصوت الأنفى اللثوى المجهور .

٤ — الصوت الأنفى الصلب المجهور .

٥ — الصوت الأنفى الرخو المجهور .

٦ — الصوت الأنفى اللهوى المجهور .

ولو فرض أن فقدت هذه المجموعة من الأصوات صفة الأنفية فإن هذا

---

(١) انظر مقالة القيم من دى سوسيير فى مجلة word الجزء الثالث سنة ١٩٤٧ وقد أفدنا من هذا المقال فى كل ما كتبناه هنا عن دى سوسيير .

ولا شك أمر عام يشملها جميعاً . ولـكن هذا العموم ليس هو الذى ينفيه دى‌سوسير، إذ أن الأنفية صفة واحدة خاصة من بين الصفات التى تكون كلا من هذه الأصوات . ولو كان التغير عاماً افقد الصوت رقم « ١ » الأنفية والشفوية والثنائية والجهر، وفقدالصوت رقم « ٢ » الأنفية والشفوية والاسنانية ولـ... وهكذا وهـــذا النوع من العموم هو الذى ينفيه دى سوسير لا العموم بالمعنى الأول .

أما عدم انتظام التطور فيقصد به دى سوسير مخالفة الطبيعيين الذين يرون التطور عملية ميكانيكية منتظمة تفرضها طبيعة اللغة كما تفرض طبيعة الشجرة تجردها من أوراقها فى فصل من فصول السنة وإزهارها ثم إثمارها فى فصل آخر . كما يعنى بذلك أيضاً أن حدوث تغير ما لا يعنى بالضرورة حدوث تغير آخر؟ فلو تغيرت الميم وأصبحت غير أنفية لما كان هذا بالضرورة مستلزماً حدوث هذا التغير فى النون مثلا .

ويقول دى سوسير بأن المحاكاة ليست تغيراً على الإطلاق ولـكنها فى الواقع أمر يتعلق بالحقائق المتعاصرة . وهى عنده كذلك لأنها لا تنتج « رمزاً جديداً » إذ هى « ترتيب لرموز قديمة » .

وقد عارض ويلز فى بحثه المشار إليه رأى دى سوسير هذا وقرر أن دى سوسير قد فرق بين التغير الصوتى وبين المحاكاة لأن هذه الأخيرة تتأثر بالنظم اللغوية التى تتكون من وحدات متعاصرة ، أما التغير الصوتى فلا يعتمد بالضرورة على مثل هذه النظم ،ولـكن هذا الفرق كما يرى ويلز ليس ذا قيمة لأن الحقيقة التى لا مفر منهاهى حدوث تغير فى‌النظم اللغوية. وسواء كان سبب هذا التغير المحاكاة التى تعتمد على النظم أوكان التغير صوتياً لا يعتمد على وجود نظم ، فإنه يتحتم على الباحث فى تطور اللغة أن يدخله فى اعتباره .

هذا هو رأى دى‌سوسير ونقد ويلز له ، ولابد فى رأينا من توضيح بعض المفهومات التى ذكرت عرضاً حتى يدرك القارىء الرأى ونقده إدراكا تاماً .

المحاكاة نوع من الخطأ غير الشعورى يقع فيه واحد من أبناء اللغة عند تطبيق قاعدة من قواعدها . ومثالها قول الطفل « فيه واحد راجل » . والقاعدة أن الاسم النكرة يوصف باسم نكرة مشتق ، فنقول مثل « فيه راجل كبير » ، ولا يمكن أن تكون الصفة اسماً جامداً إلا إذا كان مفهومها وصفاً معيناً مثل « راجل سبع » أى شجاع . أما كلمة « راجل » فى المثال الأول اسم جامد يقصد به مدلول اسم الذات . ومن ثم فإنه لا يشير إلى وصف معين . وقد التبست هذه القاعدة على الطفل فظن أنه من الممكن استعمال اسم الذات « راجل » وهو نكرة بنفس الطريقة التى يستعمل بها الاسم المشتق النكرة « نايم » أو « شاطر » ، فوقع فى الخطأ . وهنا توفرت العناصر الآتية :

١ — وجود قاعدة .

٢ — وجود شبه بين الاسم الجامد « راجل » والمشتق « شاطر » وهو كون كل منهما نكرة .

٣ — وقوع الخطأ وشيوعه عند المتكلمين .

والقاعدة تمثل النظام لأنها نوع خاص من العلاقات التى تقوم بين الوحدات المتعاصرة . والوحدات هنا هى الاسم الذى نسميه موصوفاً والاسم الذى نسميه صفة أما العلاقات فتتمثل شكلياً فى وقوع الاسم الذى نسميه صفة بعد الاسم الذى نسميه موصوفاً وفى اتفاقه معه فى التعريف والعدد .

نود على سبيل الاستطراد أن نلفت النظر إلى حقيقة هامة هى أن من الممكن فى اللهجة المصرية أن نقول « هات واحد شاى » أو « هات اتنين شاى » أو « هات واحد كفتة » أو « هات اتنين كفتة » ولكن لا يمكن أن نقول « هات واحد كتاب » أو « اتنين كتاب » ولكنا نقول « كتابين » وسبب هذا أننا قد قلدنا الأجانب من اليونانيين خاصة الذى كانوا يسيطرون على العمل فى المطاعم والمقاهى وليس فى لغتهم « صيغة المثنى » وهذا هو

السبب فى أننا لا نقول «هات شايين» أو «هات خضارين» كما يمكن أن نقول لخادم المطعم «هات اثنين بطيخ» ولا يمكن أن نقول هذه العبارة لبائع الفاكهة .

والنظم – أو القواعد – عند دى سوسير هى اللغة ، أما التطبيق الخارجى الذى أنطق به أنا أو أنت فهو عنده الكلام ودى سوسير يرى أن ما حدث هنا هو خطأ فى الكلام أو خطأ فى التطبيق لا يبلغ مستوى اللغة التى هى لديه أمر ذهنى جماعى . وكأنى به بعد أن تم تغير القاعدة ، أى بعد شيوع الخطأ من فرد بعينه إلى أن عم الجماعة اللغوية بأسرها ، كأنى به لا يعتبر لظاهرة المحاكاة وجوداً لأن القاعدة لا تمثل خطأ وإنما يكون الخطأ موجوداً فى التطبيق عندما يشذ الاستعمال الفردى عن استعمال الجماعة . ولما كانت المحاكاة أساساً نوعاً من الخطأ فإنها لا توجد إذا شاع الاستعمال وأصبح قاعدة .

ومن هناك نجد الاختلاف بين دى سوسير وويلز غير جوهرى لأنه فى الواقع تفسير لمدى وجود المحاكاة .

مفهوم التطور عند دى سوسير :

لو تأملنا ما تعرضنا إليه من آراء دى سوسير لوجدناه قد تعرض للغة من اعتبارات ثلاثة ، اعتبار نفسى واعتبار اجتماعى واعتبار شكلى . وسنحاول الآن أن نبين مفهوم التطور اللغوى وفق كل من هذه الاعتبارات

العوامل النفسية والتطور :

للرمزية اللغوية عند دى سوسير كما رأيت جانبان جانب خارجى يتمثل فى الموجود الخارجى وليكن جسما خشبياً ذا فروع وأوراق ، وفى لفظ يشير إليه وليكن الكلمة شجرة ، وجانب نفسى يتمثل فى الصورة الموجودة فى الذهن لهذا الجسم من ناحية والصورة الصوتية والدلالية التى توجد فى

الذهن للفظ الذى يدل عليه . ويمكن أن تدرك وجود الصورة الذهنية للجسم بتخيله كما يمكن إثبات وجود الصورة الصوتية للفظ بالنظر إليه مكتوباً دون النطق به أما إدراك مدلوله فأمر واضح لا جدل فيه .

وعملية الربط بين اللفظ والمدلول عملية تبدأ مبكرة مع ولادة الطفل . وهو عندما يولد يكون فى شبه غيبوبة لا يعى لما يرى أو يسمع معنى، ولكنه لا يلبث حتى يربط بين ما يسمع وما يرى من أشياء . ولنفرض مثلا أن طفلا صغيرا سمعنى أقول لك « خذ هذا الكتاب » ، ورآنى حين أقول هذا أشير بيدى ثم أتحرك إلى الأمام مادا بيدى وفيها الكتاب ، ثم رآك بدورك تمد يدك وتأخذه . الطفل هنا يربط بين ما أحدثت من صوت وبين ما أتيت أنا وأتيت أنت من حركات ، دون أن يفرق بين الأمور التى لا علاقة لها بأخذ الكتاب والأمور التى ليس لها بذلك علاقة، مثل تحريك رأسى أو ابتسامى. هو يربط بين الصوت جملة وبين مجموع ما أتينا من حركات ، ولكنه لا يلبث فى مرة أن يسمع نفس العبارة « خذ هذا الكتاب » دون حركة منى إلى أمام أو خلف أو إشارة بيدى ، وهنا تبدأ عملية عزل بين الأمور الهامة وغير الهامة فى تحقيق رد الفعل أى أخذ الكتاب . وسيدرك أن حركتى للأمام أو للخلف أو إشارتى بيدى ، ليست ذات دخل فى حملك على أداء هذا العمل .

ومعنى هذا أنه سيركز انتباهه على الرمز الصوتى ، دون الحركات المصاحبة له . وهذه أول خطوة لتحقيق الرمزية اللغوية التى تربط بين الرمز والمرموز إليه .

ومن رأى دى سوسير كذلك أن الصور الذهنية مختزنة فى العقل الجمعى[١] ، فما معنى اختزان الصور الذهنية ؟ ليست الصورة أمراً مادياً يمكن اختزانه ، وليس العقل وعاء يمكن اختزان الأشياء فيه . ومن ثم فإن هذه العبارة لا تعنى غير أنه يدرك أن العملية العقلية عند المتكلم التى تسبق

(١) رفضنا فى كتابنا « اللغة بين الفرد والمجتمع » نظرية العقل الجمعى فارجع إليه .

النطق بكلمة « محمد » والعملية العقلية عند السامع التى تلحق النطق بها ، شبيهة بالعملية التى تسبق أو تلحق النطق بهذه الكلمة مرة ثانية . وبالرغم من تشابه العمليتين العقليتين ، فإن كلا منهما منفصلة تمام الانفصال عن العملية الأخرى . وهذا هو مايتيح الفرصة لاختلاف العملية الأولى عن العملية الثانية على نوع ما . وعن هذا الاختلاف ينتج التطور اللغوى ، الذى يصدر دائماً من الفرد .

وأماسبب الاختلاف فقد يكون خارجياً ، كما لو أصيب إنسان بالصمم وفى هذه الحالة لا تصل الأصوات إلى ذهنه على وضعها الصحيح ، فيتأثر نطقه بالكلمات . وقد يكون السبب داخلياً نفسياً ، كالخطأ فى الربط بين الرمز والمرموز إليه لسبب أو آخر . وسأذكر هنا مثالين للخطأ فى الربط بين الصوت والمدلول .

يقول الطفل محمد عبد المنعم أيوب(١) « أنا جامد » يعنى « أنا تعبان » فكيف حدث هذا الخطأ ؟ يمكن أن أتصور الموقف الآتى :

ذات يوم كاف الطفل برفع جسم من الأجسام ، وحاول رفع هذا الجسم فتعب من هذه المحاولة . وهنا قال أبوه لمن معه « لا داجامد عليه » . وسمع الطفل كلمة « جامد » ، وربط بينها وبين حالته المتعبة ، وأصبحت هذه الكلمة رمزا لحالة التعب ، فاستعملها بمعنى « تعبان » .

هذا الخطأ نفسى داخلى . هو خطأ فى الربط بين الكلمة ومدلولها .

أما المثال الثانى فيتلخص فى أنى سمعت ذات يوم الطفل « أسامة بدر » يتغنى قائلا « ياوابور سعيد » ، فأدركت بطبيعة الحال الخطأ فى استعمال « وابور » بدلا من « بور » . أما كيف حدث هذا الخطأ فذلك لأن كلمة « بور سعيد » كانت فى هذا الحين على كل لسان ، بعد الاعتداء البريطانى الفرنسى على مصر فى سنة ١٩٥٦ ، وكانت تتردد فى الأغنيات التى تذاع بين

---

(١) عمره سنتان ونصف .

الحين والحين . واسم «سعيد» هو اسم مفهوم له ، أما « بور » وهى تحريف للكلمة الفرنسية Port بمعنى «ميناء» ، فليست ذات مدلول عند هذا الطفل . وقد كان القرب الصوتى بين « بور » و « وابور » ، سبباً فى أن ظن الطفل الكلمة « وابور سعيد » لا « بورسعيد » وهى بهذا الوضع مفهومة بل قريبة من مستواه العقلى ، الذى يمكن أن يتصور طفلا اسمه «سعيد» له «وابور» . هذا الخطأ كما ترى خطأ فى عملية نفسية داخلية .

من الأخطاء التى يقع فيها الطفل أيضاً ، عدم استطاعته ترتيب الأصوات فى الكلمة . ولهذا فإن الطفل « محمد عبد المنعم أيوب » كان يقول « أديك بوثك » أى « أديك بوكس » . وهو فى هذا النطق يضع الكاف فى آخر الكلمة ، بينما أن موضعها الطبيعى قبل آخر الكلمة .

وقد ينتج مثل هذا الخطأ عن مرض عصبى يعرف باسم الافازيا ويعجز المريض به عن ترتيب أصوات الكلمات . وهذا يعنى أن ما يقع فيه الطفل من خطأ فى ترتيب الأصوات أمر نفسى ناتج من عدم انتظام العملية السيكولوجية لديه ، قبل أن يكون راجعا إلى سبب خارجى .

فى كل هذه الألوان من الخطأ الذى يصدر عن أسباب نفسية خروج عن الأوضاع اللغوية التى يقرها الاستعمال الجماعى للغة . وهذا الخروج بلاشك نوع من التغير اللغوى ينقصه الشيوع حتى يصبح تطورا فى اللغة الجماعية . ولو فرضنا أن إخوة الطفل وأمه وأباه قلدوه فقالوا « بوثك » بدلاً من « بوكس » لكان هذا الخطأ النفسى الذى وقع فيه الطفل سبباً من أسباب التطور فى لغة العائلة .

ولعل مما يلفت النظر أن لنتائج هذا العيب النفسى الذى وقع فيه الطفل أشباها فى لغة الجماعة ، فهناك مثلا قلب مكانى فى الكلمة «بطرمان» التى تنطق أيضاً « برطمان » ، وهناك كلمة « أنارب » التى مفردها « أرنب » لا « أنرب » ، كما أن هناك من الطوائف من يستعمل اللفظ للدلالة على غير مدلوله مثل

استعمال كلمة « دفية » للدلالة على ما نسميه نحن « بطانية » الخ . ولا يملك الباحث إلا أن يلاحظ الشبه الواضح بين الأخطاء التى يقع فيها الفرد لسبب نفسى ومثل هذا النوع من الاختلاف فى لغة الجماعة .

العوامل الاجتماعية والتطور :

اللغة عنصر هام — إن لم تكن أهم — من عناصر الحياة الاجتماعية ، ومن ثم فهى كذلك أمر موروث لا نسلمه إلى من بعدنا كما أخذناه ، بل نضيف إليه ما يجد لدينا من ألفاظ أو تركيبات هى فى واقع الأمر صورة لما يجد لدينا من خبرات ومعارف . ولو عاش إنسان وحيداً لتعلم ولا شك من خبراته التى يحصلها من بيئته ، ولنفرض أنه ابتكر عدداً من الكلمات يرمز بها إلى عدد من الأشياء أو الأحداث ، فإن هذا العدد سيظل محدوداً لا يزيد . ولو مات هذا الإنسان ، وجاء من بعده إنسان آخر ، وعاش وحيداً فى نفس البيئة وابتكر بدوره عدداً آخر من الكلمات يرمز بها لنفس الأشياء والأحداث التى ابتكر لها سابقه رموزاً ، لو فرض هذا فإن الشخص الثانى يبدأ من حيث بدأ الشخص الأول لا من حيث انتهى .

لقد كان فى بيئة الإنسان الأول شجرة وكلب ورعد . وقد رمز لها بهذه الكلمات الثلاثة . وعندما جاء الثانى وجد هذه العناصر الثلاثة واتصل بها بدوره فابتكر لها أسماء ثلاثة أخرى . لم يأخذ الثانى إذن عن الأول ما حصل من رموز لغوية ولم يزد عليها ما يبتكر هو الآخر .

وليس هذا هو ما يحدث فى النشاط اللغوى العادى الذى هو نشاط جماعى ، وتتمثل جماعية النشاط اللغوى — فى أحد مظاهرها — فى الوراثة اللغوية ، فأنا قد أخذت اللغة عن أبى ، محدودة المفردات محدودة التركيب ، ثم تركت ميدان حياة القرية إلى ميدان أوسع ، أضفت فيه إلى ما كسبته عنه من رموز لغوية رموزاً لغوية جديدة . ويأتى ابنى من

بعدى ليأخذ منى ، ثم يذهب إلى حياة أوسع ليضيف من محصولها اللغوى إلى ما أخذ عنى .

ولكنى لا أحتفظ بكل الثروة اللغوية التى آخذها عن أبى ، ولا يحتفظ ابنى بدوره بكل ماياخذ عنى . ويقتضى هذا أن يكون هناك فرق فى المحصول اللغوى بينى وبين أبى ، وبين ابنى وبينى . وهذا الاختلاف فيما بيننا ولاشك ، نوع من التطور بين لغة الفرد الذى هو ابنى ، ولغة الفرد الآخر الذى هو أبى . هو تطور بمعنى أن ابنى قد أخذ اللغة عنى وأخذتها أنا عن أبى وأضاف كل إلى ما أخذ ما ابتكر أو ما أخذ عن غير أبيه . هناك اختلاف كمى ولا شك . على أن الاختلاف الكمى ليس كل شى ، فأنا حين أتعلم كلمة عن أبى أنطق بها كما ينطق بها ، ولكنى حين أعيش فى بيئة جديدة قد أنطق بنفس الكلمة على نحو آخر ، أو بمعنى آخر غير المعنى الذى كان أبى يعنيه . وهذا تطور فى الكيف .

على أن الكسب اللغوى لا يقتصر على هذا النوع الوراثى الذى يمكن أن نطلق عليه كسباً رأسياً ، أى هابطاً من الأب للابن . ولكن هناك نوعاً آخر من الكسب اللغوى العرضى ، بمعنى أنه ليس كسباً عن الأب والجد ، بل عن الزميل والقرين الذى تربط بينك وبينه ظروف العمل واللهو ، والأخوة والخصومة ، وغير ذلك من ألوان النشاط الجماعى .

والكسب اللغوى متبادل ، فأنا آخذ منك وأنت تأخذ منى ، وبمقدار ما تأخذ منى وآخذ منك يكون التوحيد اللغوى . وعلى هذا النمط تتكون لغة الجماعة التى ليست فى الواقع شيئاً آخر غير لغة الأفراد .

وليس ثمة من شك فى أن هناك عملية ثنائية تتم مع كل تطور لغوى ، أحد جانبيها نفسى والآخر اجتماعى .

وقد عرضنا من قبل إلى الظروف النفسية الفردية ، التى تتدخل فى عملية

التطور اللغوى . ولاحظنا أن لما ينتج عن هذه الظروف النفسية الفردية من تطور — أو بالأحرى من أخطاء لغوية كالخطأ فى ربط الرمز بالمرموز إليه أو الخطأ فى ترتيب الأصوات — من النظائر فى لغة الجماعة ما يدفع إلى التساؤل عما إذا كان للجماعة بدورها ما يمكن أن يسمى بالعمليات العقلية الجماعية أو بعبارة أخرى بالعقل الجمعى .

لقد عاب الكثيرون نظرية العقل الجمعى ، ولكن ما عابوه فى الواقع لم يكن إلا نوعاً من الفهم الخاص لكلمة « عقل » . ويميل علماء النفس السلوكيون إلى اعتبار العقل مجرد سلوك . وهو بهذا ليس ملكة جماعية بل تشابه فى السلوك بينى وبين سواى من أفراد الجماعة التى أعيش فيها . وهذا التشابه السلوكى أمر لا شك فيه ؛ فنحن أبناء الجماعة الواحدة نتشابه فيما نحب وما نكره وفيما نستطيب من مأكل أو مشرب أو ملبس وفيما لا نستطيب من كل ذلك . وهذا الشبه ناتج عن التشابه فى الظروف التى تحيط بأبناء الجماعة الواحدة من ناحية وعن تبادل ما يحصل عليه الفرد من خبرات مع ما يحصل عليه سواه منها .

ومن هنا كانت الظروف الخارجية عنصراً هاماً من عناصر الحياة الاجتماعية التى يهتم اللغوى بدراستها باعتبارها من الدراسات المكملة للدراسة اللغوية . ومن أجل هذا يختلف رد الفعل عند استعمال عبارة معينة فى جماعة ما ، عن رد الفعل الناتج عن استعمال عبارة تناظرها عند جماعة أخرى ، فلفظ « شتاء » فى مصر مثلا يرتبط بالحياة الدافئة فى جونا المعتدل بينما يرتبط لفظ « صيف » بالشمس الحارة المرهقة . وبالعكس فى بلاد أوروبا الشمالية حيث يرتبط لفظ « شتاء » بالحياة الشاقة من مكافحة الجليد والوقاية من البرد القارس ، بينما يرتبط لفظ « صيف » بنوع من الحياة الدافئة التى تشبه حياة الشتاء هنا . وهذا الاختلاف ولا شك ناتج عن اختلاف الظروف الخارجية هنا وهناك وهو اختلاف كما ترى ينعكس على التعبيرات اللغوية وإمكانيات استعمالها .

وللظروف الاجتماعية جانب آخر يمكن أن نسميه بالظروف العقلية

للجماعة وهى بمجموعة القيم السلوكية والفكرية بصفة عامة ولهذه بدورها أثر هام فى التعبيرات اللغوية .

لنأخذ على سبيل المثال العبارة الإنجليزية give my love to your wife والعبارة العربية التى تناظرها وهى « بلغ حبى لزوجتك » وسنجد أن العبارة الإنجليزية يمكن أن يستعملها الفرد مع صديق له دون أن يكون لها رد فعل آخر غير الشكر . أما العبارة العربية فلن تلق هذا النوع من رد الفعل بل ستلق العكس منه تماماً . وسبب هذا الاختلاف هو اختلاف الظروف العقلية فى جماعة لغوية عنها فى جماعة أخرى .

وهكذا نقول بأن لهذه الظروف الاجتماعية أثرها فى تكوين الرمز اللغوى وهو يتكون لدى الفرد — ومن ثم فهو أمر فردى نفسى — ولكنه يتأثر بالظروف الاجتماعية التى تحيط به من ناحية كما أنه من ناحية أخرى ميراث يأخذه الفرد من آبائه وزملائه ويستعمله فى التعبير عن الظروف والملابسات التى تحيط به هو . ومن الواضح أننا نعيش اليوم فى ظروف وبين أشياء وأحداث تختلف عما كان يحيط بآبائنا . ولكننا نستعمل فى الإشارة إليها ألفاظاً موروثة كانوا بدورهم يستعملونها ، وإذن فهناك وحدة — أو بالأدق تقارب — فى الرمز اللغوى بينى وبين أسلافى ، واختلاف — نسبى على الأقل — فيما نرمز إليه بهذا الرمز . لقد كان العرب يستعملون كلمة « قطار » ، ولكن جماعتنا أخذت تترك استعمال قوافل الجمال يسير بعضها خلف بعض ، واستعملت بدلا من ذلك « قوافل » من عربات السكك الحديدية يسير بعضها خلف بعض . هنا اختلاف فى المرموز إليه ، ولكنه اختلاف نسبى ، فلا يزال الشبه واضحاً بين القطار بالمعنى القديم والقطار بالمعنى الحديث .

وإذا صح أن نقول بأن هناك تطوراً فى دلالة هذه الكلمة ، فإننا

نستطيع أيضاً أن نقول بأن اختلاف الظرف الخارجى اليوم عنه بالأمس ، هو الذى سبب هذا التطور الدلالى .

ولنحاول الآن أن نلقى نظرة شاملة على الأسس النفسية والاجتماعية للتطور اللغوى لنجدها تنحصر فى أمور :

١ — الخطأ السيكولوجى عند الفرد فى ربط الرمز بالمرموز إليه أو فى ترتيب الأصوات أو غير ذلك .

٢ — تبادل النشاط اللغوى بين الفرد وسواه من الأفراد . مما يجعل مثل هذا الخطأ أوسع انتشاراً ، فيبدو كما لو كان أمرا ناتجاً عن انفعالات نفسية جماعية .

٣ — تغير الظروف الخارجية عند جماعة فى عصر متأخر واختلافها عما كانت عليه الظروف المحيطة بهذه الجماعة فى عصر متقدم .

المذهب الشكلى :

نظر دى سوسير إلى اللغة باعتبارات ثلاثة ، اعتبار نفسى واعتبار اجتماعى واعتبار شكلى . ويتمثل هذا الاعتبار الأخير فيما قرره من أن اللغة مجموعة من النظم المتداخلة ، التى تكون فيما بينها نظاماً تركيبياً عاماً هو الذى نسميه قواعد اللغة . وهو لا يعنى بالنظام مدلول التركيب أو الصيغة بل يعنى التركيب نفسه أو الصيغة نفسها ، وهذا هو الجانب الشكلى ، أما الدلالة فهى الجانب النفسى من النشاط اللغوى .

وقد تطور تلاميذ دى سوسير ولاحقوه من اللغويين فى أوروبا وأمريكا بنظرية الوحدات والنظم التى قال بها دى سوسير تطورا كبيرا يتمثل فى مدرستين إحداهما المدرسة الإنجليزية التى أسسها أستاذى المرحوم ج . ر . فيرث والثانية المدرسة الأمريكية التى أسسها الأستاذ المرحوم ل . بلومفيد ، وقبل أن نتعرض لآراء هذين الأستاذين نود أن نعرض

للتطور من وجهة نظر المدرسة الشكلية منذ عصر دى سوسيير . وهو يرى أن التطور لا يقتصر على ما يطرأ على الأصوات أو الكلمات من تغير ولكنه يتعداهما إلى تطور فى النظم ذاتها . وقد قدم لرأيه هذا بنظرية التوازن التى سنقدمها قبل الحديث عن رأيه فى التطور .

نظرية التوازن equillebrium

أمامك كوب ملىء بالماء . هذا الكوب يضم عدداً من القطرات فى حالة سكون . ومن ثم يمكن أن نقول بأنها متوازنة . القطرة التى فى موضع سفلى قد استقرت فى موضعها بين سواها من القطرات ، شأنها فى ذلك شأن القطرات الأخرى التى وسط الكوب أو فى أعلاه . ولكن فلنفرض أن قطرة سفلى قد ارتفعت ، أو أن قطرة عليا قد نزلت إلى أسفل ، هل ينحصر تأثير ذلك فى هذه القطرة التى تعلو أو تلك التى تهبط فحسب ، أم أن سواها من القطرات سيتأثر كذلك بما تأتى من حركات ؟ لا شك فى أن الحركة لن تكون قاصرة عليها ، بل إن حركتها ستدفع سواها من القطرات إلى إتيان حركات أخرى لتحقيق التوازن الذى اختل عندما تحركت إحدى القطرات . وستظل هذه الحركات مستمرة ، حتى تأخذ كل قطرة وضعها الجديد ، فيتحقق التوازن فيما بينها مرة ثانية ، ويسود وضع الاستقرار الذى اضطرب منذ حين . ولكن فلنفرض أننا لسنا بإزاء قطرات موضوعة فى كوب ، بل بإزاء قطرات يضمها مجرى النهر ، هل يمكن أن نقول بوجود توازن بين هذه القطرات ، مع أن واحدة منها ليست فى حالة استقرار ! ؟

ولنفرض أنك رأيت عدداً من الجنود ، يسيرون فى عرض عسكرى كل منهم يتحرك إلى الأمام بقدميه ويتحرك بذراعيه إلى الخلف مرة ثم إلى الأمام مرة ، هل يمكن أن نقول بوجود توازن فى هذه الحالة كذلك ! ؟

نعم من الممكن أن نقول بوجود توازن ، فبالرغم من عدم وجود حالة استقرار بالنسبة لكل جندى من الجنود — أو لكل قطرة فى النهر — فإن هناك حالة استقرار بالنسبة للصف فى مجموعه ، حيث أن ما يأتيه كل جندى

من حركات تماثل وما يأتيه سواه ، تماثلا يجعل من الممكن أن نفترض ن الصف كله وحدة تتحرك فى مجموعها فى اتجاه واحد وعلى شكل منتظم ، كما تدفع كوب الماء قليلا قليلا دون أن تتحرك قطراته إلى أعلى أو إلى أسفل . ولنفرض أن الجندى الأول قد اتجه يميناً والثانى يساراً ، ثم تبع الثالث والخامس وسواهما من الأرقام الفردية الجندى الأول ، وتبع الرابع والسادس وسواهما من الأرقام الزوجية الجندى الثانى ، ثم استمر الحال على ذلك حتى نهاية الأمر ، لو حدث هذا لأمكن القول بانه — بواسطة حركة كل جندى إلى اليمين أو إلى اليسار — يحدث توازن جديد ، ولكن الشكل العام للوحدة ، وهى هنا الصف ، يختلف عن الشكل الأول[1] .

من هذه الأمثلة ، يمكن أن تفهم نظرية التوازن ، التى تقول بأن كل مجموعة معينة من الوحدات تقوم بينها علاقات معينة ، تعتبر فى حالة توازن حين تكون هذه الوحدات وعلاقاتها فى حالة استقرار ، وأنه إذا تغيرت إحدى هذه الوحدات بالوجود أو العدم ، أو بالزيادة أو النقص ، تغيرت العلاقات بتغير شكل الوحدات . وعند حدوث تغير فى الوحدات أو العلاقات ، يقال بأن التوازن قد اختل . وفى هذه الحالة تحدث سلسلة من التغيرات ، حتى يصل المجموع إلى حالة استقرار جديدة ، يقال معها بتحقق التوازن مرة أخرى .

أريد أن أوضح هذه النظرية بالشكل الهندسى القادم ، قبل أن أطبقها على بعض الأمثلة اللغوية .

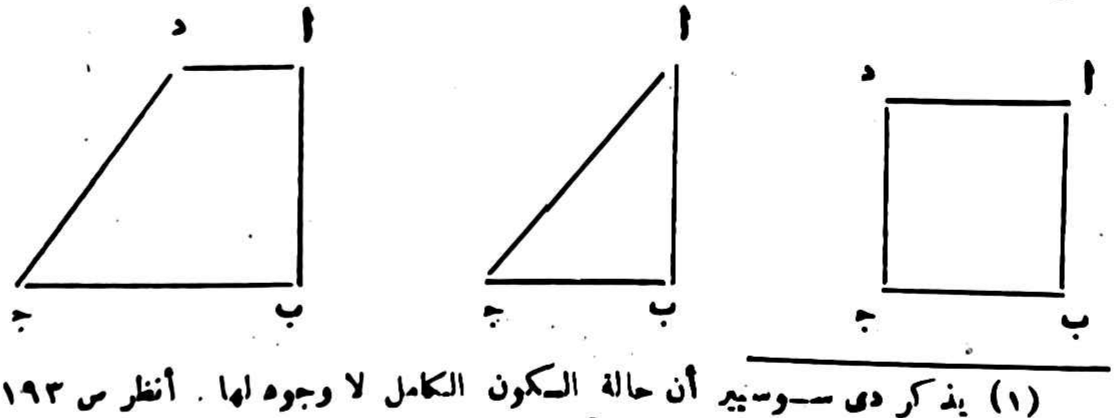

(١) يذكر دى سوسير أن حالة السكون الكامل لا وجود لها . أنظر ص ١٩٣ Cour de Linguistique Génerale ، باريس سنة ١٩٣١ .

الشكل (ا) عبارة عن مجموعة من أضلاع أربعة، هى التى نسميها الوحدات. وينحصر بين كل اثنين منها زاوية قائمة نسميها العلاقة بين هذين الضلعين. والشكل (ب) هو نفس الشكل (ا) ولكن مع نقص أحد أضلاعه . وقد نتج عن نقص الضلع ، اختلاف العلاقات القائمة بين الأضلاع بعضها وبعض ، واختلاف الشكل العام أيضاً . أما فى الشكل (ح) فقد حدث الاختلاف بنقص فى طول أحد الأضلاع ، وقد اختلفت بعض العلاقات ، كما اختلف الشكل العام نتيجة لذلك .

ويمكن القول بأن كلا من الأشكال الثلاثة السابقة نظام ، لأنه مجموعة من وحدات وعلاقات. أما التوازن فهو حالة من الحالات ، يفترض فيها أن الوحدات والعلاقات ثابتة. ولكن هل من الممكن أن تكون الوحدات والعلاقات اللغوية ثابتة فعلا ؟ الجواب لا. وذلك لأن كل فرد من أفراد الجماعة اللغوية ، يدخل فى كل لحظة قدراً من التغيير فى النشاط اللغوى الذى يقوم به. وهذا يؤثر بدوره فى النشاط اللغوى العام الذى يضعه الباحث فى نظم لغوية.

ومن أجل هذا ، فإن من واجبنا أن نلفت النظر إلى أن النظام اللغوى ليس فى دقة النظام الرياضى ، حيث أن التطور المستمر للوحدات اللغوية ، يجعل النظام اللغوى أمراً غير شامل ، أو بعبارة أخرى ، يجعل الشذوذ عن القاعدة حقيقة كثيرة الوقوع فى اللغة .

نود الآن أن نطبق ما ذكرناه على أمثلة من صميم اللغة .

أولا : تدل الكلمة العربية الفصحى « بيت » على ما نطلق عليه اليوم فى الفصحى الحديثة كلمة « حجرة » . وتدل الكلمة « دار » فى الفصحى أيضاً على مجموع الحجرات والأبهاء التى بينها[1]. وكل من الكلمتين «بيت» و«دار»

(١) فى القاموس المحيط أن الدار المحل يجمع البناء والعرصة (أى البهو) ، وأن البيت من الشعر أو المدر أى أن البيت هو البناء الذى يستعمل للمبيت ، والدار هى مجموع البيوت والأبهاء التى بينها .

فى العربية الفصحى وحدة دلالية ، كما أن بينهما علاقة دلالية أيضا ، هى كون «البيت» جزءا من «الدار» وبمقتضى تعريفنا للنظام، بأنه مجموعة من الوحدات والعلاقات ، فإنه من الممكن أن نقول بأن هاتين الكلمتين ، نظراً لما بينهما من علاقة ، تكونان نظاماً دلالياً خاصاً . وفى العصر الحديث اقترضت العامية المصرية كلمة « أودة » من اللغة التركية ، وهى بمعنى « بيت » فى اللغة العربية . على فرض أن معنى الكلمتين « دار » و « بيت » فى العامية المصرية كان شبيها بمعناهما فى العربية الفصحى ، فإن اقتراض الكلمة التركية «أودة» جعل المصرية تضم نظاماً يحتوى على ثلاث وحدات، بعد أن كان يحتوى على وحدتين فقط قبل هذا الاقتراض. وقد نشأ عن هذا، أن اختلفت العلاقات بين هذه الوحدات ، فبدلا من أن تكون علاقة الكلمة « دار » بالكلمة «بيت» هى علاقة الكل الدلالى بالجزء ، أصبحت هذه العلاقة علاقة الكل الدلالى بكل يساويه فى الدلالة . وذلك لأن « بيت » فى العامية المصرية لا تعنى الحجرة بل عدداً من الحجرات وما يوجد بينها من أبهاء . وهذه هى نفس الدلالة التى تدل عليها كلمة «دار» فى العامية المصرية ، أما كلمة « أودة » فقد أخذت المعنى الذى كانت كلمة «بيت» تستعمل فيه قبل القرض . ويمكن تلخيص ذلك فيما يأتى :

١ — اقترضت كلمة « أودة » من التركية وأخذت دلالة « بيت » .

٢ — أخذت كلمة « بيت » معنى كلمة « دار » .

٣ — احتفظت كلمة «دار» بنفس معناها ، ولكن تحدد استعمالها تحدداً جغرافياً فأصبحت تستعمل فى القرى ، بينما تستعمل كلمة « بيت » فى المدن .

٤ — لم تعد العلاقة بين « دار » و «بيت» علاقة الكل بالجزء ، بل علاقة الكلمات المتساوية فى المعنى مع اختلاف اللهجة .

ومن هذا المثال ترى أن زيادة وحدة معنوية إلى هذا النظام الدلالى قد أحدثت اختلالا فى التوازن القائم بين وحدات هذا النظام، وأن الاختلال

لم يلبث أن زال بعد أن وجد نظام آخر، يضم ثلاثة من الوحدات، بين أولاها (بيت) وثانيتها (أودة) علاقة الكل بالجزء، وبين أولاها وثالثتها «دار» و«بيت» علاقة لهجية dialectical مع تساويهما فى المعنى .

ثانيا : تستعمل العربية الفصيحة بين صيغها الفعلية صيغة المبنى للمجهول مثل ضُرِب وكُتِب . وقد اكتفت العامية المصرية بصيغة «انفعل» مثل «انضرب» و «انكتب» التى تعرف فى النحو العربى باسم صيغة المطاوعة واستغنت عن تلك الصيغة . ومع هذا فإن هذا القانون، أو القاعدة، ليس كامل الإحكام بحيث لا يقبل الشذوذ ، فلا تزال العامية المصرية تستعمل مثل هذا التعبير «البلدى يوكل» حيث نجد الفعل «يوكل» وهو فى دلالته وصياغته، نظير للمبنى للمجهول فى العربية الفصحى «يؤكل» . ومعنى هذا أن انقراض الوحدة التصريفية المسماة بالمبنى للمجهول من النظام المصرى لتصريف الفعل ، لم يخل من شذوذ . وقد أشرنا من قبل إلى أنه بالرغم من أننا نقارن النظام اللغوى بالنظام الرياضى، فإننا لا ندعى أن النظام اللغوى فى دقة النظام الرياضى ، من ناحية شمول هذا الأخير لجميع أفراده .

ثالثا : لو قلنا بأن نظام الأصوات فى اللهجة العربية المصرية يجعل فى نظير القاف الفصحى همزة قطع ، وفى نظير الذال دالا أو زايا ، والثاء تاء أو سينا الخ ، لو قلنا هذا لأمكن إيراد هذه المآخذ على هذه القاعدة :

(ا) صحيح أن القاف تظهر فى المصرية على شكل همزة قطع . ولكن هناك من الحالات ما لا تنطبق عليه هذه القاعدة . ومن أمثال ذلك العبارة الشائعة فى بعض قرى مركز المحلة الكبرى «دى الوكيته[1]» بمعنى «الآن» و «الوكيته» تناظر كلمة «الوقت» . ومن الملاحظ أن نفس المتكلمين بهذه العبارة ينطقون بكلمة «وقت» بالهمزة ، فيقولون (وأت) كما نقول فى القاهرة .

---

(١) سمعت هذه العبارة ببلدة الجابرية مركز المحلة الكبرى .

كذلك يستعمل بعض المصريين الكلمة « يتـــأرع » بمعنى يتجشأ . ويستعمل البعض الآخر هذه الكلمة ناطقاً بالكاف بدل الهمزة ، فيقول « يتكرع » . وفى القاموس [« كرع الماء » تناوله بفمه من موضعه من غير أن يشرب بكفه أو بإناء] (١) . ولو صح أن « كرع » الفصحى أصل « اتأرع » المصرية لكانت الهمزة هنا تقابل الكاف لا القاف فى العربيـة ولو صح العكس ، وكانت الهمزة فى « اتأرع » تناظر القاف ، لكانت هذه القاف تقابل الكاف فى « يتكرع » ، بدلا من أن تقابل الهمزة ، كما تقتضى القاعدة .

وفى القـاموس أيضاً « سقع الشىء ضربه» و«سقع الطعام» أكله حيث يتجمع الدهن . وفى المصرية « سكع الواد علقة » و « سكع الأكاة» . ونحن نميل إلى ربط « سقع » بالكلمة المصرية « سكع » فى كلتا الحالتين . ولو صح هذا لكانت القاف تقابل الكاف لا الهمزة .

والقـاعدة أن الذال تكون — فى المصرية — زايا أو دالا ، فمثلا كلمة « ذل » تناظرها فى المصرية « زل » ، وكلمة « ذكر » يناظرها فى المصرية « دكر » . ومن المسلم به أن القانون الرياضى لا يترك مجالا للاحتمال فلا يصح أن تقول مثلا إن ٥+٦=١١ أو ١٢ ، كما يقول القانون اللغوى . وما يقال عن الذال يقال أيضاً عن « الثاء » مثل « ثقيل » ويقابلها « تقيل » أو « سئيل » أى أنها تناظر التاء أو السين .

ومن هنا نخلص إلى أنه بالرغم من القول بالقـانون اللغـوى — أو القاعدة اللغوية — فإنه لا ينطبق انطباقاً دقيقاً كما ينطبق القانون الرياضى أو الطبيعى .

---

(١) يلاحظ أن هذه الطريقة من الشرب تحدث صوتا شبيها بالصوت الذى يحدث عندما يتجشأ الإنسان .

تأثير تطور الوحدات فى النظام المركب :

قلنا من قبل إن اللغة مجموعة من النظم المتداخلة ، أى التى يعتمد بعضها على بعض . ونود الآن أن نشبه ذلك بالشكل الهندسى الآتى :

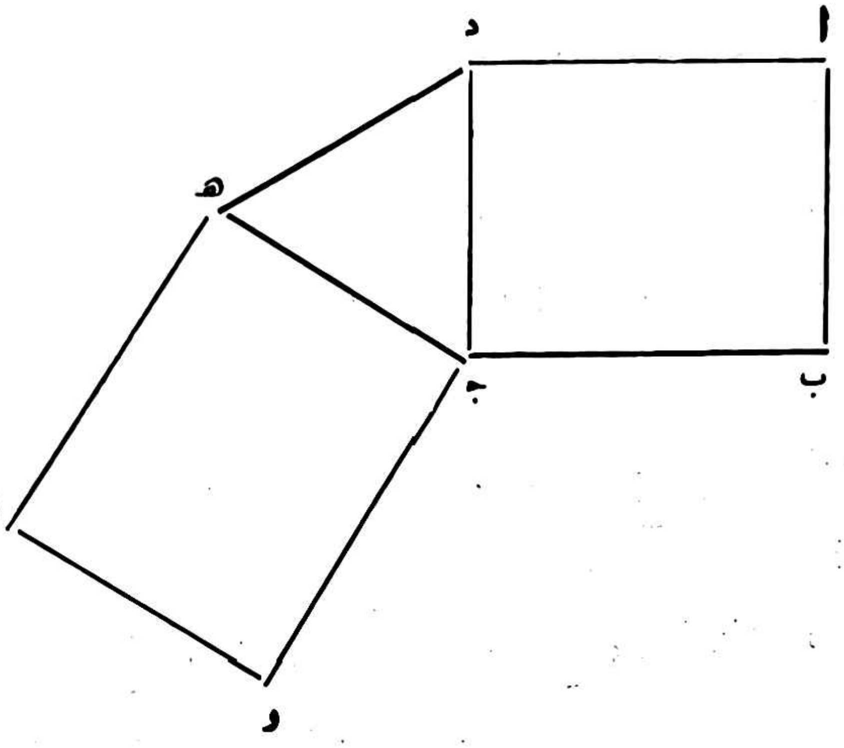

وهذا الشكل مكون من مربع ا ب حـ ء ، رسم على أحد أضلاعه مثلث هـ ء حـ ، وعلى أحد أضلاع هذا المثلث رسم مربع آخر . وهو يمثل عدداً من النظم هى المربع ا ب حـ ء ، والمثلث حـ ء هـ ، والمربع الثانى حـ هـ و ز . ومن الظاهر أن كلا من هذه الاشكال يعتمد على شكل آخر ، ولنتصور الآن أن الضلع ب حـ قد قصر قليلا ولننظر ماذا ستكون النتيجة .

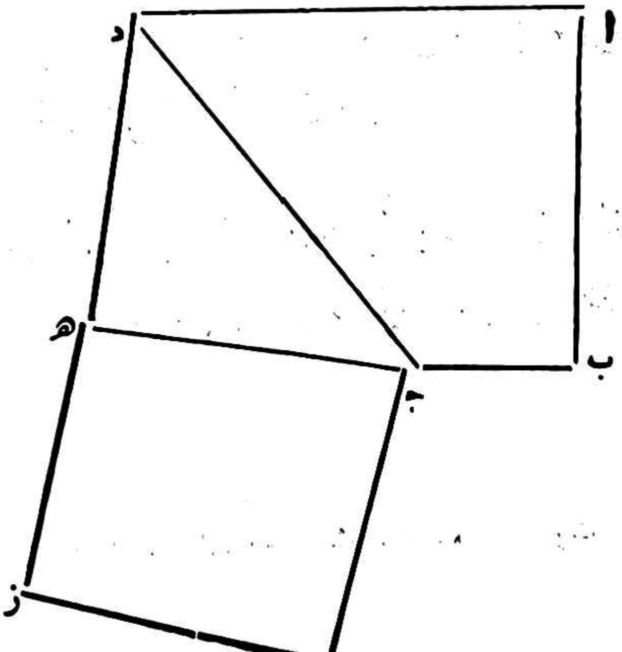

النتيجة كما يتضح من هـذا الشكل أن قصر الضلع ب ح قد سبب تغير طول الضلع و ح ، وأن هذا قد أثر بدوره فى المثلث ح و ھ ، وبالتالى فى المربع ح ھ و ز المقام على أحد أضلاع المثلث المذكور، كما أثر على الشكل العام فى مجموعه . ومعنى هذا أن تغير الوحدة (أى الضلع ب ح) لم يؤثر فيها وحدها، بل تعداها إلى الشكل الذى توجد فيه ، ثم إلى الأشكال الأخرى المرتبطة بهذا النظام ، وفى الشكل العام المتكون من مجموع هذه النظم .

والتطور فى النظم اللغوية قد يؤدى إلى مثل ما حدث فى هـذا الشكل الهندسى المركب ، لأن اللغـة كما سبق أن ذكرنا مجموعة من النظم المركبة . ونذكر مثلا لهذا ما حدث لألفاظ العدد المركبة فى المصرية مثل « تلتاشر » و«خمستاشر»، فقد حدث فيها تطور صوتى تمثل فى عدم احتكاك العين ونتج عن هذا أن فقدت كلمة « عشر » العين مما أدى إلى عدم اعتبـارها كلمة واعتبرناها مجرد لاصقة عددية . وقد نتج عن هذا اختلاف النظر إلى ألفاظ العدد المركب فى المصرية من الناحية النحوية أيضا فلم تعـد نعتبرها تركيبا نحويا (بل صرفيا) ولم يعد من الممكن اعتبار التاء فيها تاء تأنيث كما كانت فى الفصحى .

وهـكذا يحدث التطور فى اللغـة ، فهناك تطور فى الأصوات قد يؤثر بدوره على المفردات ، وهذه قد تؤثر بدورها فى القواعد ، وتـكون النتيجة فى النهاية اختلاف اللغة فى مجموعها عما كانت عليه من قبل . وسترى فى هذه المحاولة التى نحاولها هنا أن هذه التغيرات المختلفـة ، ستفضى بنا فى النهاية إلى حالة لغوية جديدة [1].

---

(١) أنظر دراسة « النفى فى العربية » فى نهاية هذا الـكتاب .

(٢) أنظر مقاله :

Personality and Language in Society—Durkheimian Structurlism The Sociological Rev. vol. XLII. المنشور فى مجلة سنة ١٩٥٠ القسم الثانى

١ — ج . ر . فيرث

يقرر الأستاذ فيرث أن دى سوسيير قد وضع أساس علم اللغة الحديث ، وأن مذهبه يمكن أن يوصف بأنه « تركيبي دور خايمى »(١) . وهو بهذا يعنى أنه تفكيره اللغوى يجرى فى أعقاب دور خايم الذى يرى « أن الحقائق الاجتماعية ذات طابع خاص وأنها خارجة عن الظواهر الفردية وموجودة على مستوى مختلف عنها » . ومن أجل هذا يعتبر دى سوسيير أن النشاط الفردى اللغوى كالقراءة والكتابة والسماع مجرد ظواهر فردية لاتنتمى إلى اللغة (اللسان) التى هى حقيقة اجتماعية، بل تنتمى إلى الكلام (parole) ، وكل لغة (لسان) تكون كما يقول مييه (Meillet) — تلميذ دى سوسيير — نظاما قائماً بذاته يتألف من مجموعة من الوحدات المترابطة والتى تكون الكل الذى يسمى « لغة » .

ثم يستطرد فيرث مقرراً مذهبه فيقول « عندى وعند عدد من زملائى أن علم اللغة ليس أكثر من مجموعة من أساليب البحث تمكن الباحث من علاج الأحداث اللغوية ونحن ننظر إلى الأساس الذى تسير عليه باعتبارها وسيلة للتحليل المنظم وأنها كيان علمى قائم بذاته لا يتفرع من علم آخر كعلم النفس وعلم الاجتماع أو أى اتجاه آخر من الاتجاهات الميتافيزيقية » .

ولكن فيرث حين يصر على استقلال علم اللغة عن علم الاجتماع — وهو ما تورط دى سوسيير فى إغفاله — يضع الأمر وضعا جديدا فلا يقول بثنائية الفرد والمجتمع التى قال بها دور خايم ومن بعده دى سوسيير . ومحور نظريته هو الشخصية »(١) . وشخصية الفرد وحدة قائمة بذاتها لها خصائصها التى تفرقها عن الشخصيات الأخرى ولكنها تشبهها من وجوه عديدة .

---

(١) Personality

« نحن ندرس اللغة باعتبارها جزءاً من عملية اجتماعية . وإن ما نسميه النظم الصوتية أو الأجناس النحوية أو الصرفية أو الدلالية ليس أكثر من هياكل مبتكرة ومنظمة الغرض منها الوصول إلى تحليل الأحداث اللغوية . وهى لا تزيد عن الهياكل الخشبية التى يستعين بها البناء[1] لإقامة حائط . . وليس لمثل هذه النظم وجود خارجى . . . . ولكنها مجرد اصطلاحات ذات مفهومات معينة نستعين بها على فهم اللغة » .

وإذن فليس فى اللغة « فاعل » أو « مفعول » أو « فعل » أو « مصدر » ولكن اللغة أقوال تنطق ولا غير . أما « الفاعل » أو « المفعول » أو سواهما فهى مجرد ألفاظ وضعناها لنشير بها إلى صفة من صفات هذه الأقوال (أى اللغة) ، وهى فيما عدا ذلك لا وجود لها . وهكذا يهدم فيرث نظرية « الكلام » و « اللغة » التى قال بها دى سوسيير ولا يعتبر للغة وجوداً ذهنياً مختلفاً عن الكلام الواقعى .

ويرى فيرث أن دراسة اللغة ـ أو بالأدق دراسة كل حدث لغوى من أحداثها ـ تمثل فى الواقع دراسات من أنواع متعددة تتوالى واحدة بعد الأخرى ، كما تذهب أنت كالك لطبيب الأنف ثم تذهب كالك أيضاً لطبيب العيون ثم للجراح وهكذا ، دون أن يأخذ الأول أنفك والثانى عينيك لعلاجها بعيدا عن كيانك العام .

وأول هذه المستويات دراسة « ملابسات الحدث اللغوى » [2] أى دراسة الظروف التى يتم فيها . ولا بد لهذه الدراسة من أن يبتكر الباحث نظاما يطبقه على الأحداث اللغوية . وهذا النظام يتكون من مجموعة من الاعتبارات التجريدية ـ غير التركيبية اللغوية ـ تشتمل ما يأتى :

---

(١) أى ليست جزءا من الحائط بل هى مجرد كيان خارجى صنع حتى يمكن هدمه أو بناؤه .

(٢) context of situation.

١ ـ الصفات المتصلة بمن يشتركون فى الحديث ، بمن لهم علاقة بالحدث اللغوى وهذه الصفات إما :

١ ـ أحداث لغوية صادرة عنهم .

٢ ـ أحداث غير لغوية .

ب ـ أشياء خارجية ذات صلة بالحديث .

ج ـ آثار ناتجة عن الأحداث اللغوية .

ومن الممكن أن نحلل كلا من عناصر ملابسات الحدث اللغوى هذه ونقسمها إلى أنواع .

« ودراسة الملابسات نوع من التجريد المفيد فى مستوى التحليل الاجتماعى للبحث اللغوى ، وهو الدرجة الأولى فى سلم مناهج البحث فى الدلالة ، ولكن دراسة الدلالة لا تتم على درجة واحدة ، فبعد أن نقوم بأول تجريد يتمثل فى دراسة العملية الاجتماعية للكلام بواسطة تطبيق ما ذكرنا من اعتبارات تدخل فى نطاق الملابسات ، يبدأ دور علم اللغة الوصفى فى البحث ، طبقا لمراحل تشبه تحليل الحزمة الضوئية بجعلها تمر خلال عدسة مضلعة (١) » .

وعند فيرث أن الدراسة الوصفية التحليلية للحدث اللغوى بكل مراحلها دراسة للدلالة على نحو أو آخر . ونحن نلخص هنا ما يعنيه بذلك (٢) .

---

(١) Spectrum.

(٢) تعرض فيرث بالتفصيل فى مقاله Modes of Meaning « أنواع المعنى » لدراسة الدلالة من ناحيتها الاجتماعية والتركيبية ومن هذا المقال أخذنا الاقتباسات السابقة وسنلخص بقية مذهبه . وقد كتب فيرث مقالا آخر بعنوان The Technique of Semantics (منهج دراسة الدلالات) فصل فيه علاقة الدراسة اللغوية الوصفية بالدلالة ، وقد نشر أول المقالين سنة ١٩٥١ فى ص ١١٨ من مجلة Essays and Studies أما المقال الثانى فقد نشر سنة ١٩٣٥ فى مجلة Transactions of the Philological Society :

يأتى بعد مستوى دراســـة « الملابسات » عدد من المستويات أكثر اتصالا باللغة باعتبارها أشكالا تعبيرية وهذه هى « المستوى النحوى »وهو يعالج عملية انتظام الكلمات فى جمل، والمستوى الصوتى وهو يعالج النظم التى تحكم وجود الوحدات الصوتية (الصوتيمات) بعضها بجوار بعض والخواص الصوتية prosodies التى توجد — فى ظرف أو ظروف معينة — فى الجملة أو الكلمة أو جزء الجملة أو جزء الكلمة . وذلك باعتبار أن لهذا الترتيب وهذه الخواص قيمة دلالية معينة . ويربط علماء الأصوات هذه بعملية النطق والصفات التى توجد فيها لأنها تميز الأشخاص والجماعات بل والدول » .

وهكذا يريد فيرث أن يبين القيمة الدلالية لمجرد كون النظام الصوتى على هذا الشكل أو ذاك، لأن كل نظام صوتى ـ أو صفة صوتية خاصة ـ يكشف عن شخصية صاحبه وطبقته الاجتماعية بل والأمة التى ينتمى إليها، فالتفخيم على النحو الخاص المعروف فى العربية يكشف عن الشعب الذى ينتمى إليه المتكلم . والتفخيم على النحو الذى تستعمله طبقة قراء القرآن فى مصر مثلا يكشف عن الطائفة التى ينتمى إليها المتكلم ، كما أن مدى تفخيم الألفاظ عند شخص بذاته قد يكون أمرا خاصا به ومن ثم فإنه يدل عليه . ومعنى هذا أن هذه الخاصية الصوتية على نحو أو آخر ذات معنى، ضرورة أنها أوحت للسامع بفكرة عن شخص المتكلم أو طائفته أو أمته .

وفيرث يتبع هذا المنهج فى دراسة الدلالة على حد قوله ، دون أن يشير إلى ثنائية اللفظ والفكرة أو التعبير الخارجى والمدلول الداخلى ، أو اللغة والفكر . « ويجب ألا يظن أحد أنى بهذا أخرج من اعتبارى فكرة « العقل » أو أنى أومن بالمادية الشاملة وأتجنب والوقوع

فى قبضة المذهب العقلى »[1] .

كل ما يقصده إذن أن يدرس الدلالة اللغوية فى نطاق النظم اللغوية وبأساليبها ، أما الدلالة بالمعنى الفلسفى أو النفسى فهو لا يقول بعدم وجودها ولكنه يرى أنها أمر آخر غير لغوى ليس من شأننا نحن أن نعالجه .

مرت بنا أنواع من المعنى يمكن حصرها فى (١) معنى الملابسات (٢) معنى التركيب النحوى والصرفى (٣) معنى التركيب الصوتى أو الصفات الصوتية .

وبقى نوع آخر من المعنى هو معنى الكلمة باعتبارها كلمة ، أى بصرف النظر عن الملابسات والتركيب الذى صيغت فيه ، أو الوزن الصرفى الذى نسجت على نسقه أو النظام الصوتى الذى رتبت على أساسه أصواتها . هنا يتعرض فيرث لنوع من الارتباطات التى توجد بين الكلمات لا يوصف بأنه نحوى وهو يسميه بالترابط[2] . ولدراسة الترابط ـ غير النحوى ـ يجب أن نستعرض جميع التعبيرات التى توجد فيها الكلمة وأن نصفها وسنجد أنها تجاور كلمات بعينها أو أنواعا بعينها من الكلمات . ولنضرب لك مثالا لنبين به معنى الترابط الذى يريده .

فى المصرية توجد كلمة « دين » وبإحصاء الأمثلة التى توجد فيها يمكن أن نقول بأنها توجد بإحدى الطرق الآتية :

---

(١) هذا النص منقول عن مقالة Modes of Meaning (أنواع المعنى) وقد بسط رأيه فى تفصيل أكثر فى مقاله الثانى (منهج دراسة الدلالات)

(٢) ليس القصد به الجوار المباشر بل إمكانية وجود الكلمة مع كلمة أخرى ولو فصلت بينهما كلمة أو أكثر .

١ — تقع بعد كلمة «عند» مثبتة أو منفية وفيها ضمير متصل مثل «عنده دين» أو «ماعندوش دين» .

٢ — تقع قبل اسم أحد الأديان أو الصفة التى تؤخذ من اسم الدين بإضافة ياء النسب أو اسم الطائفة التى تؤمن به الخ مثل «دين الإسلام» أو «الدين الإسلامى» أو «دين المسلمين» الخ .

٣ — تقع بعد الفعل «يلعن» أو «يطلع» أو «يسب» مثل «يلعن دين الـ ...» أو «يطلع دينه الخ» ، وهكذا .

ولو حصرنا جميع أنواع الترابط التى توجد فيها هذه الكلمة لكنا بذلك قد حددنا معناها اللغوى دون حاجة إلى التعرض للاعتبارات الفلسفية أو النفسية . ومثل هذه الدراسة أساس صالح لدراسة الأساليب الفنية الأدبية دراسة تحليلية علمية بعيدة عن الإغراق فى الانطباعات الذاتية التى يتورط فيها نقاد الأدب .

الخلاصة أن فيرث قد رفض ثنائية الرمز اللغوى التى قال بها دى سوسير وأنه فى الوقت الذى لا يرفض فيه رأى علماء النفس أو الفلاسفة عن طبيعة المعنى ، يرى أن يكون المعنى عند اللغوى امرا مأخوذا من التركيب اللغوى ذاته او من الملابسات المرتبطة به . وهو فى النهاية يرى ان ما نسميه قواعد اللغة ليس هو اللغة بل على حد قوله ليس اكثر من وسيلة نصنعها نحن لنتفهم الأحداث اللغوية .

ل. بلومفيلد

ترجع أهمية بلومفيلد فى نظرى إلى أنه مؤسس مدرسة التحليل اللغوى

بمعناه الشامل . وقد بدأت المدرسة التحليلية فى أول أمرها قاصرة على الدراسات اللغوية الصوتية ، وظلت بقية فروع الدراسة اللغوية فترة ما غارقة فى نوع من الجدل المستعر بين اللغويين القدامى والمحدثين حول مسائل عامة كتعريف الكلمة وتعريف الجملة وحول تفسيرات النحاة القدامى وتأويلاتهم .

وكانت الدراسات الصوتية قد انتهت على يد دانيال جونز إلى مستوى علمى دقيق عندما ركز فكرة « الصوتيم » - أو الوحدة الصوتية [١] . قد سبق أن أشرنا إلى رأى دى سوسيير القائل بأن النظام عبارة عن وحدات وعلاقات ، ولهذا فإن دانيال جونز لم يكتف بذكر الوحدات الصوتية بل تبع ذلك بوضع النظم التى تتكون منها [٢] .

وقد فعل بلومفيلد فى بقية فروع الدراسات اللغوية ما فعله جونز فى ميدان الأصوات . وزاد على ذلك أن وضع عدداً من القضايا والتعريفات تجعل للمفهومات اللغوية معنى محددا . وقد استفاد بلومفيلد من علم الرياضيات فأخذ عنه طريقة القضايا — وهى تعنى مجموع الفروض والبديهيات والتعريفات — لأنها فى نظره ، تحملنا على أن نحدد الفروض التى نقول بها تمام التحديد وأن نعرف مصطلحاتنا .... مما يوفر الجدل .... ويبعدنا عن الخلافات السيكولوجية . والجدل الذى يدور فى علمنا هذا يتمثل نصفه فى تقرير بعض الحقائق الواضحة ونصفه الآخر فى مجادلات حول أمور ميتافيزيقية . وليس هذا أو ذاك جزءا حقيقيا من علمنا الذى يجب أن نستغنى فيه عن الأفكار التى تنتمى إلى علوم أخرى » [٣].

---

(١) Phoneme ،

(٢) أنظر كتابه The phoneme

(٣) ترجمنا القضايا والتعريفات ترجمة كاملة من مقاله المنشور فى مجلة Language سنة ١٩٢٦ من ص ١٥٣ إلى ص ١٦٤ وسنضع تعليقاتنا بين قوسين [ ] خلال المقال .

وسنستعرض هنا أهم القضايا والتعريفات التى جعلها بلومفيلد أساس المدرسة الشكلية التحليلية المعاصرة .

أولا — الشكل والدلالة

١ - تعريف كل حدث لغوى « قول »

٢ - قضية . فى كل جماعة يوجد شبه كلى أو جزئى بين الأقوال (ومثال الشبه الكلى قولك « إنى جائع » وقول الطفل « إنى جائع » حتى لا يذهب إلى سريره لينام . والشبه كلى هنا رغم اختلاف المقصود من القول فى كل حالة . أما الشبه الجزئى فيوجد مثلا بين القول « هذا الكتاب جميل » والقول « ضع الكتاب على المائدة » ويتمثل الشبه فى الجزء « الكتاب »).

٣ - تعريف . مثل هذه الجماعة تسمى « جماعة لغوية »

٤ - تعريف . مجموع الأقوال الصادرة من جماعة لغوية تسمى « لغة هذه الجماعة » .

٥ - تعريف . كل أمر يشبه أمراً آخر تمام الشبه يسمى « مماثل »[١] ويسمى « مخالف » إذا لم يشبهه على الإطلاق أو لم يشبهه تمام الشبه .

٦ - تعريف . الصفات الصوتية [٢] المشتركة بين قولين أو أكثر متماثلين تماثلا كلياً أو جزئياً تسمى « أشكالا » . ويسمى كل ما يقابلها من صفات فى « المثير - رد الفعل » [٣] دلالات .

وعلى هذا فالشكل [٤] هو مجموعة من الصفات الصوتية ذات الدلالة التى يمكن أن توجد مجتمعة فى أقوال مختلفة . أما الدلالة فهى صفة فى « المثير - رد الفعل » توجد فى الأقوال المختلفة المرتبطة بشكل معين .

---

(١) same (٢) phonetic features (٣) المثير هو الدافع للقول مثل رؤية النار ورد الفعل نتيجة القول مثل جرى الناس لإطفائها عند سماع القول « حريق » .
(٤) form

٧ - قضية ٢ . كل قول يتكون من أشكال ولا غير .

ثانياً — الوحدة الصرفية والكلمة والجملة

٨ - تعريف . أقل «س» هى « س » لاتتكون من عدد من «السينات» الأقل منها . وعلى هــذا فإذا كانت س١ تتكون من س٢ و س٣ و س٤ فإن س١ لا تكون أقل س ، أما إذا كانت س١ تتكون من س٢ و س٣ و ا أو من س٢ و ا أو من ا١ و ا٢ أوكان لا يمكن تحليلها فإنها تكون فى هذه الحالة أقل س .

٩ - تعريف ، أقل شكل يسمى وحدة صرفية[١] (أو صرفيم) . وأقل دلالة تسمى وحدة دلالية (أو دلاليم) . وعلى هـذا فإن أى (كلمة) أو (مكونة)[٢] لا يمكن تحليلها تسمى صرفيم .

[وتطبيقاً للقضية رقم ٢ تكون الكلمة « من » العربية (أقل س) لأنه لا يمكن أن تقسم إلى كلمات أخرى . ومعنى أنها أقل س أنها أقل وحدة أى كلمة واحدة . وكذلك تكون (لمن) اقل (س) أيضاً لأنها تتكون من « من »وهى «س» أى كامةومن (لِ)وهى ليست (س) لأنها ليست كامة بل لاصقة ، أى أن « لمن » = س ل (ل = لاصقة) . أما (من جاء) فإنها تتكون من « من » وهى كامة أى «س١» و «جاء» وهى كامة ثانية أو «س٢» ولهـذا فإن « من جاء » ليست أقل « س » أو بعبارة أخرى ليست كامـة واحدة] .

١٠ - تعريف . الشكل الذى يمكن أن يكون قولا كاملا يسمى (حراً) والذى ليس حراً يسمى (مقيدا) .

[وعلى هذا فالأشكال (كتاب) و (الرجل) من الأشكال الحرة . أما « ـون » من« مؤمنون » أو« ـات » من « مؤمنات » فمن الأشكال المقيدة] .

---

(١) morpheme (٢) formation

١١ – تعريف . الشكل الحر الأقل يسمى « كلمة »

وبناء على هذا فالكلمة هى كل شكل (ذى معنى) يمكن أن يكون وحده قولا ولا يمكن تحليله إلى أجزاء يصح أن تنطق بمفردها [مثل « إبراهيم » ، وهى شكل لا يمكن تحليله . ومثل « لإبراهيم » ، وهى شكل يمكن تحليله إلى جزئين ثانيهما « إبراهيم » ، ويمكن أن يكون بمفرده نطقاً . وأولهما « ل » ، ولا يمكن ان ينطق مفرداً ولهذا فإن الشكلين مجتمعين يعتبران كلمة واحدة] .

واما الشكل الإنجليزى blackbird [1] فيمكن تحليله إلى black و bird ويوجد نبر قوى فى المقطع black ونبر ضعيف فى المقطع bird . وكل من المقطعين شكل كما أن النبر شكل ثالث لأنه صفة صوتية لها دلالة ، [الدلالة التى يعبر عنها النبر القوى فى المقطع الأول والضعيف فى الثانى أن المقطعين معاً يكونان كلمة واحدة تطلق على طير بعينه لا على أى طائر أسود ، ولو كان النبر ضعيفاً فى المقطع الأول وقوياً فى الثانى لكان لدينا صفة وموصوف ولكان معنى النبر على هذا الوضع علاقة الوصفية بين صفة « أسود » وموصوف « طائر » ، والصفة والموصوف يطلقان على أى طائر أسود لا على نوع بخصوصه من الطيور . وإلى القارئ مثالا من اللغة العربية الفصحى يناظر هذا المثال الإنجليزى. لفظ العدد المركب « ثلاثة عشر » مكون من « ثلاثة » ، و« عشر » ، ومن صفة صوتية تتمثل فى حركة الفتحة بعد التاء فى « ثلاثة » ، وبعد الراء فى « عشر » . ولهذه الصفة الصوتية دلالة حيث أنها هى التى تجعل هذين الجزئين بمعنى « ١٣ » ؛ إذ لو كان الجزء الأول « مرفوعاً » ، والثانى مجرورا وهما على هذا الترتيب لكان هناك دلالة أخرى هى دلالة الإضافة أى أن الثلاثة ملك للعشرة] .

---

(١) اسم طائر وهو كلمة واحدة وليس صفة وموصوفا

[وكذلك الكلمة المصرية « مالك » تتكون من جزئين « مال » وكاف المخاطب » وليست « ما » و « ل » و « ك » لأن هذه اللام غير اللام فى الشكل « رحت لمحمد » . ودليل هذا وجود فرق صوتى بين هاتين اللامين يتمثل فى سقوط كسرة الميم فى « محمد » وبقاء كسرة اللام فى « رحت لمحمد » ، بينما تبقى كسرة الميم ولا تتحرك اللام فى الشكل « مال محمد » . ولهذا الفرق الصوتى دلالته ، فاللام مرة لاصقة تدل على الغاية ومرة ثانية جزء لا يتجزأ من اللاصقة « مال » بمعنى « كيف »] .

١٢ - تعريف . الشكل الحر غير الأقل يسمى « كاما » (١)

[ومثاله « الكتاب » و « يضرب الرجل الكلب » . وليس منه « كتاب فوق » من النطق « هذا كتاب فوق المائدة » ، لأن « كتاب فوق » ليست فى مجموعها ذات دلالة . ومن ثم فإنها ليست شكلا ، ضرورة اننا اشترطنا وجود دلالة للشكل . صحيح أن كلا من « كتاب » و « فوق » لها دلالة وأنها لذلك شكل ، ولكن ليس لمجموعهما دلالة أخرى . ولهذا فإن مجموعهما ليس شكلا] وليس منه الكلمة blackbird فى الإنجليزية [او ثلاثة عشر فى العربية] لأنها شكل حر أقل .

١٣ - تعريف . الشكل المقيد الذى يكون جزءا من الكلمة يسمى « مكوّناً » (٢) . وقد يكون المكون مركباً مثل نهايات الفعل فى اللاتينية abat — abaut — abit — abunt — [ومثل اللاصقة كما لمثنى المخاطب فى العربية ففيها الخطاب والتثنية] كما قد يكون المكون « اقل » مثل « t » للغائب المفرد فى اللاتينية [ومثل تاء تأنيث الفعل الماضى فى العربية] .

١٤ - قضية ٣ . الأشكال فى اية لغة من اللغات محدودة العدد .

---

(١) phrase

(٢) formative

ثالثا — مثال القضايا الخاصة

تتطلب الظواهر التى توجد فى لغات معينة القول ببعض القضايا الشكلية الخاصة . وقد تدعو ضرورة وجود هذه القضايا إلى تعديل القضايا العامة . وفيما يلى أمثلة لهذه القضايا الخاصة .

قضية خ ١ . قد يشتمل الكلم على شكل مقيد ليس جزءا من كلمة وذلك مثل « ز » [تكتب s] التى للملكية فى الجملة الإنجليزية :

The man I saw yesterday's daughter

تعريف . مثل هذا الشكل المقيد يسمى « مكون كلم »

[ولتوضيح ما يريده بلومفيلد أذكر أن « s » فى الإنجليزية لاصقة تفيد الملكية. وهى تقع بين اسمين أولهما مالك للآخر مثل The man's daughter أى بنت الرجل . ومن الممكن وصف « man » فى هذه الجملة بجملة ثانوية مثل (I saw yesterday) ومعناها الذى رأيته بالأمس . وجملة الصفة هذه تقع بعد (man) ثم تقع بعدها لاصقة الملكية (s) . ولا يمكن اعتبار اللاصقة متصلة بكلمة (man) لأنها لا تقع بعدها ، كما أنه لا يمكن اعتبارها متصلة بالكلمة الأخيرة فى جملة الصلة ، لأن هذه الكلمة الأخيرة (yesterday) أى الأمس ليست هى المالك . بل المالك هو كلمة (man) أى الرجل . وعلى هذا فإن من المعقول أن يكون المالك هو مجموع الاسم (man) وجملة الصلة التى يوصف بها . وبهذا لا تكون هذه اللاصقة مكونا متصلا بكلمة بل مكونا متصلا بأكثر من كلمة واحدة أو بكلم ولهذا تسمى « مكون كلم »]

وهذه القضية تؤدى إلى بعض التناقض فى التعريف الذى ذكر من قبل حيث أنها تستلزم أن نعتبر الجملة The man I saw yesrerday's daughter مكونة من كلمتين [لأنه قد سبق القول بأن المكون هو الشكل المقيد الذى يكون جزءا من كلمة . والشكل المقيد (s) واقع بعد كلمة yesterday ولكن علاقته

ليست به بل بكل ما سبقه من اسم man وجملة الصفة] ومن الأسهل فى تحليل اللغة الإنجليزية أن نقول بهذه القضية . وقد يكون من الأسهل كذلك أن نقول بها فى لغة الفلبيين .

رابعا — الوحدات الصوتية (الصوتيمات) (١)

١٥ — قضية ٤ قد تتشابه الصرفيمات المختلفة تشابها كليا أو جزئيا باعتبارها صفات صوتية .

[مثل « كتاب » و « باب » والشبه بينهما متمثل فى (ب) و « سبع » و «مسلم» والشبه متمثل فى «س» ، والشبه جزئى فى كلا المثالين . ومثل « ما » الاستفهامية و « ما » التعجبية والشبه بينهما كلى.] وتتضمن هذه القضية أن تكون دلالة كل من الصرفيمات المتشابهة مختلفة عن دلالة الآخر .

١٦ — تعريف . إذا كانت الصفة أو الصفات الصوتية مماثلا أقل أطلق عليها « صوتيم » أو « صوت متميز » (٢)

وذلك مثل« t. s. b » فى الإنجليزية (والعربيـة) والنبر العـادى فى الإنجليزية والنغم فى الصينية .

١٧ — قضية ٥ . عدد الصوتيمات المختلفة فى لغة ما قاسم بسيط لعـدد الأشكال فيها [ومعنى إنها قاسم بسيط إنها مأخوذة عنها . وهـذه الفـكرة مأخوذة من الرياضة فمثلا يمـكن أن تقول إن (٢) قاسم بسيط بين ٤ و ٨ و ١٦ لأنها تقسم كلا من هذه الأرقام . وكذلك نقول إن « ب » قاسم بين « باب » و « كتاب » و « ربح » لأنها توجد فى كلا منها كما توجد رقم (٢) فى ٤ و ٨ و ١٦] .

١٨ — قضية ٦ . كل شـكل مكون من صوتيمات فقط .

.... ولا يوجد فى اللغـة ما يسمى « الفرق الصوتى البسيط »

---

(١) phonemes.

(٢) phoneme أو distinctive sound

[أى الفرق الذى يمكن إهماله] .... والصرفيمات فى لغة ما يمكن — بناء على هذا — أن تحلل إلى عدد قليل من الصوتيمات التى لا معنى لها . ومن ناحية أخرى فإن الدلاليمات التى تقابل الصوتيمات واحداً إلى واحد لا يمكن أن تحلل بالطرق اللغوية . ولهذا فعندنا يواجه اللغويون متوازى « الشكل — والدلالة » يختارون الشكل أساسا لتقسيمهم [أو بعبارة أخرى فإن كل كلمة تتكون من وحدات صوتية ومن دلالة . والدلالة لا يمكن أن تحلل كما يحلل اللفظ، ضرورة أنها أمر نفسى، أما اللفظ فهو أمر مادى يمكن تحليله . ولهذا فإن اللغويين يجعلون اللفظ اساس ابحاثهم]

١٩ — قضية ٧ . عدد صور ترتيب الصوتيمات لتكوين الصرفيمات والكلمات قاسم بسيط لعدد الصور الترتيبية الممكنة .

[ومعنى هذا أنه لو كان لدينا مثلا ثلاثة صوتيمات ا ، ب ، ح لكانت الصور الممكنة هى ا ب ح ، ا ح ب ، ب ا ح ، ب ح ا ، ح ا ب ، ح ب ا ولكن ليس من الضرورى وجود جميع هذه الإمكانيات بالفعل إذ قد يوجد من بينها ثلاثة فقط] .

٢٠ — تعريف . الصور الترتيبية التى توجد فى لغة ما تسمى النماذج الصوتية . فمثلا فى الإنجليزية يوجد النموذج الصوتى « st — » ولكن لا يوجد « — ts » . [وفى العربية يوجد النموذج ـ ع هـ ـ فى مثل « أعهد » ولكن لا يوجد النموذج ـ هـ ع ـ وكل من هذين صورة ترتيبه ولكن الأول وحده نموذج صوتى فى العربية .

٢١ — تعريف . الأشكال المتماثلة فى صوتيماتها تسمى « مشتركات لفظية »(١) .

خامسا — التركيبات — الأنواع — أقسام الكلام

٢٢ — قضية ٨ . قد تكون الأشكال المتخالفة غير الأقل متماثلة تماثلا

---

(١) مثل « س » التى تستعمل للنداء فى المصرية .

homonemes (١)

كليا أو جزئيا فيما يتعلق بتركيب الأشكال المكونة لها، وفيما يتعلق بالصفات الخاصة « بالمثير — رد الفعل » المرتبطة بهذا الترتيب .

وقد يكون الترتيب متتابعا [كترتيب الكلمات فى الجملة «ضرب الولد محمدا »] وقد يكون مصاحبا (مثل النبر والنغم وهما يصاحبان الصوتيات) وقد يكون متبادلا (مثل au الفرنسية وتتبادل مع a Ia بصحبة اسم مؤنث) [ومثل « ات » و « ون » فى العربية لجمع المؤنث والمذكر .] .

٢٣ — تعريف . الترتيبات المتماثلة المتكررة [أى التى تتكرر فى كثير من الجمل] تسمى تراكيب وما يقابلها من صفات « مثير — رد فعل » تسمى دلالات تركيبية . وهذا يقتضى توسيع استعمال المصطلح « دلالة » [حتى يشمل معنى الكلمات وتركيب الجمل] .

٢٤ — تعريف . التركيب الخاص بمكونات فى الكلمة «تركيب صرفى» وعلى هذا ففى book - s و ox—en فى الإنجليزية [وفى مسلمون ومسلمات فى العربية] يوجد تركيب صرفى من [مكون « مسلم » ومكون آخر « ون » « ـات » ودلالة التركيب وهى جمع الذات] .

٢٥ — تعريف . فى داخل الكلم يكون التركيب المكون من أشكال حرة تركيبا نحويا (وكذلك المكون من أشكال حرة ومكونات كلم) .

[وعلى هذا فإن « رأى محمد عليا » و « الرجل يضرب الكلب » من تركيبات الصيغ الحرة . ودلالة هذا التركيب «محدث يوقع حدثه على هدف»]

٢٦ — تعريف . « س » الكبرى هى «س» لا يمكن أن تكون جزءا من «س» أكبر [وبتطبيق هذا على الجملة « جاء الرجل الذى أرسل إليك خطابا » يمكن أن نقول بأن « أرسل إليك خطابا » جزء من قطعة أكبر هو العبارة كلها . أما جاء الرجل . . . إلخ » فليست جزءاً من قطعة أكبر ولهذا فإنها تعتبر «س» كبرى أو تركيبا أكبر] .

٢٧ — التركيب الأكبر فى أى قول يسمى جملة .

[فى القول « جاء الرجل . هل عرفت ذلك ؟ لقد سأل عنك » يوجد ثلاثة تراكيب لا يمكن اعتبار أى منها جزءاً من الآخر وكل من هذه يسمى تركيبا أكبر أوجملة] .

وعلى هذا فالجملة هى تركيب فى قول وليست جزءاً من تركيب أكبر . وبالتالى فقد يكون القول مكونا من جملة واحدة أو من أكثر من جمله . كما قد يكون مركبا من كلمة واحدة مثل القول اللاتينى pluit والانجليزى «fire» [والعربى « النار »] ويكون القول فى هذه الحالة جملة .

٢٨ — قضية ٩ . عدد التراكيب فى لغة ما قاسم بسيط لعدد الأشكال .

٢٩ — تعريف . كل وحدة من الوحدات المرتبة فى تركيب لها موقع [وعلى هذا يكون التركيب العربى المؤلف من مكون (اسم) + مكون معناه « جمع الذات » (لاصقة) - مثل مسلم + ون - فيه موقعان . والتركيب المؤلف من شكل حر + شكل حر + شكل حر ومعناه « محدث يوقع حدثه على هدف » (مثل ضرب الولد الكلب) فيه ثلاثة مواقع] .

٣٠ — قضية ١٠ . كل موقع فى تركيب بعينه لا يشغله إلا أشكال معينة [وعلى فالتركيب العربى المؤلف من مكون + مكون للجمع المذكر ، يشغل الموقع الأول فيه مكونات تعرف بالأصول الإسمية (الذاتية والوصفية ، مثل « محمد » و« قائم ») أو مكونات تعرف بالأصول الفعلية (المضارع أو الأمر « يكتب » أو « أكتب ») . أما الموقع الثانى فيشغله فى حالة الأصول الاسمية المكون « ون » أو المكون « ين » أما فى حالة الأصول الفعلية المضارعة فيشغله المكون «ون» . وفى حالة الأصول الفعلية للأمر يشغله المكون « و » . يسمى هذا التركيب بالتركيب الصرفى ، لأنه كما سبق عبارة عن مكون يصلح شكلا حراً — وهو « محمد » أو

« قائم » أو « يكتب » أو « اكتب » ـ ومكون لا يصلح إلا شكلا مقيداً وهو « و ن » أو « ين » أو « و »] .

٣١ — قضية ١١ : دلالة الموقع تسمى الدلالة الوظيفية(١) . ومعنى أن هذا أن دلالة التركيب قد تنقسم إلى أجزاء يختص كل منها بموقع معين من التركيب ، وتكون هذه الأجزاء دلالات وظيفية ، وقد يكون من الأدق ـ وربما الأقل فائدة ـ أن نقول بأن الدلالة الوظيفية دلالة مشتركة بين الأشكال التى تقع فى موقع معين، حينما تكون هذه الأشكال فى هذا الموقع [وعلى هذا فالتركيب العربى « جمع الذات السالم المذكر » تكون دلالة الموقع الأول فيه « ذات مذكرة »] أو بالأدق تكون جمع المكونات التى تقع فى هذا الموقع [وهى الأصول الإسمية أو الوصفية المذكرة] مشتركة فيما بينها فى دلالة وظيفية [هى « الذات » أو « الوصف المذكر » وفى التركيب العربى « محدث يوقع حدثه على هدف » يكون للموقع الأول دلالة « الحدث الزمنى »(٢) وللموقع الثانى دلالة « المحدث » وللموقع الثالث دلالة « الهدف ». أما التركيب العربى « محدث واقع حدثه على هدف »(٣) فللموقع الأول دلالة « المحدث » وللموقع الثانى دلالة « الحدث الوصفى » وللموقع الثالث « دلالة الهدف » .

٣٢ — تعريف المواقع التى يقع فيها الشكل تسمى « وظائفه » [فمثلا الشكل « محمد » له عدد من الوظائف ، منها وقوعه « فاعلا » و « مفعولا » و « مبتدأ » و « مجروراً بالحرف » و « مضاف إليه » إلخ والشكل « قائم » من وظائفه « التعريف بأل » ووقوعه « حالا » أو « خبراً » أو « مضافا لمفعوله » إلخ] .

---

(١) functional meaning

(٢) فى مثل « يضرب » من « يضرب محمد عليا » .

(٣) مثل « محمد ضارب عليا » والحدث فى « يضرب » نسميه بالحدث الزمنى أما فى « ضارب » فنسميه بالحدث الوصفى .

٣٣ — تعريف . الأشكال التى لها نفس الوظائف تندرج تحت «جنس شكلى»[1] واحد [من أمثلة الأجناس الشكلية فى العربية «لاصقات التأنيث» و «المادة الاشتقاقية[2]» و «الموصول» إلخ] .

٣٥ — تعريف . الدلالات الوظيفية ودلالات الجنس فى لغة ما تسمى «الأنواع»[3] [ومن الأمثلة التى سبقت يمكن القول بوجود الأنواع الآتية فى اللغة العربية :

(ا) أنواع لدلالات وظيفية هى الذات ، العدد ، الفاعل ، الحدث الزمنى ، الحدث الوصفى ، الهدف (أو المفعول) إلخ .

(ب) أنواع لدلالات الأجناس ومثلها دلالات الجنس «علم» والجنس «اسم موصول» ومنها «الفاعلية» و «المفعولية» و «الإضافة إليه» إلخ . ومن الدلالات التى تنسب لجنس اسم الموصول دون جنس «العلم» «النعت»]

٣٦ — تعريف . إذا تضمن «جنس شكلى» أشكالا قليلة نسبياً فإن دلالة هذه الأشكال تسمى «النوع الثانوى»[4] .

[وعلى هذا فلنوع العدد فى العربية ثلاث دلالات ، المفرد والمثنى والجمع . ومن ثم فهناك ثلاثة أنواع ثانوية منها هى المفرد غير المحدود أو الذى يعبر عن الفرد أو الجنس[5] - مثل الرجل فى الدار و «الرجل أذكى من القرد» - والمثنى والجمع] .

٣٧ — تعريف الجنس الشكلى الذى تنتمى إليه كلمات معينة يسمى «جنس الكلمة» .

---

(١) form class

(٢) «ض . ر . ب» التى توجد فى ضرب وضارب وضرب إلخ .

(٣) categories

(٤) sub-category

(٥) الجنس هنا بمعنى ما يندرج تحته جميع أفراد مدلول «رجل» .

٣٨ — تعريف . أكبر أجناس الكلمات فى لغـــة ما يسمى « أقسام الكلام[1] فى هذه اللغة .

سادسا ــ التبادل[2] :

٣٩ — قضية . قد يتبادل صوتيم فى تركيب ما مع صوتيم آخر تبعا للصوتيمات المحيطة به .

[مثال ذلك فى العربية ، إن بات . « تنطق إم بات »] .

٤٠ ــ تعريف . مثل هذا التبادل يسمى التبادل الصوتى .

٤١ ــ قضية ١٢ . قد يتبادل شكل فى تركيب ما مع شكل آخر تبعاً للأشكال المحيطة به .

[مثال فى ذلك العربية لاصقة جمع المذكر السالم وهى « ــ ون » فى الجملة « ذهب الزائرون » و « ين » فى الجملة « رأيت الزائرين »] .

٤٢ ــ تعريف . مثل هذا التبادل يسمى « التبادل الشكلى » .

٤٣ ــ قضية ١٣ . قد يكون عدم وجود صوت تبادلا صوتيا أو شكليا

[مثال فى ذلك الأصل الثالث المعتل فى الفعل العربى « يدعو » ويتحقق فيه التبادلات الآتية :

١ ــ ضمة ضيقة طويلة فى مثل « يدعو » .

٢ ــ ضمة ضيقة قصيرة فى مثل « لم يدعه » .

٣ ــ فتحة طويلة فى مثل « دعا » .

٤ ــ كسرة طويلة فى مثل « الداعى » .

---

(1) parts of speech

(2) alternation

٥ — ياء (نصف حركة) فى مثل « لا داعى لهذا الأمر » .

٦ — صفر فى مثل « ليس هناك داعْ » . وهذا تبادل صوتى .

ومثال التبادل الشكلى الصفرى ، اتفاق الفعل الماضى مع فاعله ويتم التبادل على هذا النحو .

١ — ضربتُ وعلام الاتفاق اللاصقة « تُ »
ضربتَ « « « « تَ »
ضرب « « « «صفر»

٤٤ — تعريف . يعتبر هذا التبادل عنصراً صفرياً .

٤٥ — تعريف . إذا كان التبادل الشكلى يتم بتأثير صوتيمات الأشكال المصاحبة للشكل الذى يتم فيه التبادل ، سمى هذا « تبادلا آلياً » [ومثاله تبادل الباء المهموسة والباء المجهورة فى الجملتين المصريتين « ضربت أحمد » و « ضرب أخوه » وتوجد المهموسة قبل صوتيم مهموس أو فى آخر الكلام ومجهورة قبل صوتيم مجهور] .

والتبادلات الصوتية والتبادلات الشكلية الآلية فى لغة ما تمكن من تقسيم الصوتيمات إلى أنواع تساعد على تحديدها النماذج الصوتية (أنظر الفقرة رقم ٢٢ . وعلى هذا فإن لاحقه الجمع المطرد فى الإنجليزية (s) تتطلب تقسيم الصوتيمات الانجليزية التى تقع فى نهاية الأصول الإسمية إلى صفرية وغير صفرية (أو غير مجهورة ومجهورة) . ولا يتجاوز علم الصوتيمات حدود هذا النوع من التقسيم . [أما السبب فى تقسيم الصوتيمات فى نهاية الأصول الاسمية الإنجليزية إلى مجهورة وغير مجهورة فهو أن لاحقه الجمع تكون « s » بعد الصوتيم النهائى المهموس فى مثل cats ويكون « z » إذا كان مجهورا مثل dogs أو بالأدق dogz] .

٤٦ — تعريف. تقسيم الصوتيمات الذى تفرضه النماذج الصوتية والتبادلات الصوتية والتبادلات الشكلية الآلية فى لغة ما يسمى « النظام الصوتى لها » (لمعرفة الفرق بين النماذج الصوتية والنظام الصوتى انظر مقالا فى مجلة Language السنة الأولى ص ٣٧ كتبه E Sapir وانظر طبعة استراسبوج سنة ١٨٩٥ من كتاب

Versuch einer Theorie phonetische Alternationen

لمؤلفه (Baudouin de courtenay

[ولتوضيح الفرق بين النماذج الصوتية والنظام الصوتى نلخص هنا ما ذكره سابير فى مقاله المشار إليه ، وهذا الفرق يتضح من الآتى :

(ا) فى العربية حركة يطلق عليها « الفتحة » الطويلة من أمثلتها الفتحة الطويلة فى « صار » والفتحة الطويلة فى «بات» . ومع وجود فرق واضح فى هاتين الحركتين — إحداهما مفخمة والأخرى غير مفخمة — فإننا لا نعتبر إحداهما فتحة والأخرى أمراً آخر غير الفتحة .

ومن أمثلة الفتحة الطويلة أيضاً فتحة « طابْ » وفتحة «طالب» وبينهما فرق فى الطول ، فالأولى أطول من الثانية ، ومع هذا فإننا لا نعتبر إحداهما شيئاً آخر مخالفاً للأخرى. ومعنى هذا أن للفتحة الطويلة أوصافا تختلف فى موضع ما عن أوصافها فى موضع آخر ، وهذا ما يسمى بنماذج صوت الفتحة

sound patterns

(ب) فى اللغة الإنجليزية أزواج من الكلمات المتشابهة صوتيا pa : k و Pɑ : k ولا تختلف إحداهما عن الأخرى إلا فى الحركة فأولاهما تتضمن حركة مثل حركة « طاب » والأخرى تتضمن حركة مثل حركة « باب » . ومع هذا فإننا فى العربية قد اعتبرنا الحركة فى الكلمتين العربيتين حركة واحدة تظهر على شكلين مختلفين تبعا للظروف الصوتية المحيطة بها بكل منهما . أما فى الإنجليزية فان من الضرورى اعتبارهما حركتين مختلفتين

اختلاف الفتحة عن الكسرة فى العربية . وهذا الخلاف بين الإنجليزية والعربية قائم بالرغم من أن حركة ra : k هى من الناحية الصوتية والسماعية مثل الحركة فى « طاب » وأن تلك التى فى pa : k مثل التى فى « باب » . ومعنى هذا أن الاختلاف بين الحركتين فى العربية لم ينتج عنه تعدد بينما أنتج نفس الاختلاف فى الإنجليزية تعدداً . السبب فى هذا أن النظام الصوتى phonetic pattern فى العربية مغاير للنظام الصوتى الإنجليزية] .

٤٧ — تعريف . إذا كان التبادل الشكلى يتقرر بطريقة أخرى [أى غير ما يحيط بالوحدة من أصوات] فانه يسمى بالتبادل النحوى أو الصرفى .

[مثال التبادل الصرفى ، تبادل اللاصقة « ون » مع اللاصقة « ين » فى جمع المذكر السالم فى العربية ، تبعا لما إذا كان الاسم مرفوعا أو غير مرفوع. ومثال التبادل النحوى ، تبادل الكلمة « محمد » والكلمة «الرجل» والكلمة « الولد » الخ فى التركيب « جاء محمد » حيث أنه من الممكن أن تتبادل أى هذه الكلمات مع «محمد» فتقول « جاء الرجل » أو « جاء الولد » الخ] .

٤٨ — تعريف . إذا كانت الأشكال المصاحبة لشكل ما تقرر إمكانية نحوية أو صرفية كثيرة العدد، فإن هذه الإمكانية تسمى «إمكانية مضطردة»(١) وإذا كانت الإمكانية قليلة العدد فانها تسمى تسمى «غير مضطردة» [وعلى هذا فالإمكانية التبادلية « ون » و « ين » فى صيغة الجمع المذكر السالم غير مضطردة بينما تعتبر الإمكانية التبادلية بين « محمد » و « رجل » و « ولد » الخ المذكور فى ٤٧ إمكانية مطردة] .

٤٩ — إذا كانت جميع الأشكال المكونة لتركيب ما غير مضطردة فان الشكل العام يسمى « ملحقا »(٢)

---

(١) regular

(٢) suppaltive

فمثلا لو اعتبرنا go أصلا للفعل فإن went تكون ملحقا [لأن الأشكال المكونة لـ go وهى الصوت g والصوت o لا يتغير واحد منها باضطراد إلى أحد الأشكال المكونة لـ went ولهذا نظير فى المصرية وهو التبادل بين الفعل الماضى « جاب » والأمر « هات » (وذلك عند من لا يستعملون الأمر « جيب ») وطبقاً لنفس التعريف لا تكون better — وهى صيغة التفضيل فى الإنجليزية ملحقا ، للأصل good) لأن أحد شكليها مضطرد [وهو اللاصقة « or » وهى توجد عادة فى جميع صيغ التفضيل فى الإنجليزية]. ومثل هذا التعريف صالح لقواعد اللغة الإنجليزية .

٥٠ — تعريف . كل ماله دلالة يسمى « معنيم » . ودلالة أى معنيم تسمى « معنى » وعلى هـــذا فالمصطلح معنيم يتضمن (١) الأشكال (٢) التركيبات (٣) العناصر الصفرية .

[ونحن نلفت نظر القارىء إلى ما يأتى :

١ — المصطلح « معنيم » يطلق على الأشكال أى الألفاظ لا على مفهوماتها .

٢ — المصطلح « معنى » يطلق على المفهومات لا على الأشكال .

٣ — المصطلح « دلا ليم » (أنظر رقم ٩) هو مفهوم الوحدة الصرفية (الصرفيم) مثل « ون » والدلاليم الخاص بها هو « جمع العاقل المذكر » .

٤ — المصطلح « معنى » يشمل « الدلاليم » أى مفهوم الوحدة الصرفية الواحدة أو مجموعة « دلاليات » فى تركيب واحد ، مثل « الرجل فى داره » ، ومعناها يشمل الدلاليم الخاص بال والخاص برجل والخاص بفى والخاص بدار والخاص بالهاء . كذلك يشمل مفهوم الوحدة الصفرية مثل « ضرب » وفيها الوحدة الصرفية (الصرفيم) « ض رب » التى نسميها المادة ودلاليمها الحدث ، والصرفيم « فتحة ـ فتحة ـ فتحة » ودلاليمها « المضى وانتهاء الحدث »

والصرفيم الصفرى وهو خلو الشكل من « تاء المتكلم » و « تاء المخاطب » و « تاء التأنيث » الخ ودلالتيه « الغائب المفرد »] .

سابعاً – علم اللغـة التاريخى

٥١ — قضية ت ١ — تتطور كل لغة بمقدار يستطيع معه كل شخص التفاهم مع سواه دون صعوبة . وقد وصفنا الطريقة التى يتم بها التطور فى القضية رقم ٣ ت وما بعدها .

٥٢ — قضية ت ٢ . يعتمد مقدار التطور اللغوى لدى الأفراد على مقدار اتصالهم بسواهم ويلاحظ أن القضيتين السابقتين والقضايا والتعريفات المترتبة عليهما ليستا دقيقتى الصياغة . وليس سبب عدم الدقة أننا لا نستطيع ملاحظة التطور – لأنه بطىء الحدوث – ملاحظة مباشرة . . . . ولكن لأن هدفنا فى الدراسة التاريخية أن نلاحظ الظواهر بشكل نسبى [1] وذلك لأنه لا يوجد شخصان – أو بالأحرى حدثان لغويان – يتحدان فى اللهجة التى يتكلمانها . وعلى هذا فلا بد من أن تصاغ القضايا فى عبارات دقيقة حتى تسمح لنا بدراسة العملية التاريخية بأى درجة من التفصيل .

٥٣ — تعريف ، إذا حدث فى لغة ما أن سبب التطور أن يتعذر على طائفة من أبنائها التفاهم مع طائفة أخرى منهم ، فإنه يقال أن كلا من الطائفتين تتكلم لهجة من لهجات هذه اللغة مختلفة عن لهجة الطائفة الأخرى .

٥٤ — تعريف اللغة الموحدة الثانوية التى يستعملها أفراد كل طائفة

(١) مما لاشك فيه أن لغتى تختلف عن لغتك وأن ما أدخله على لغتى من تطور يختلف عما تدخله فى لغتك أنت . ولو تحرينا الدقة لانتهينا إلى أننا نتكلم لغتين مختلفتين . ولكن لما كنا من الناحية العملية نستطيع التفاهم الكامل برغم هذا الاختلاف فانه من المحتم أن تكون مبادىء البحث تسمح بمثل هذا التساهل ولا نتحرى الدقة المطلقة التى قد تكون عائقا دون الربط بين لغتى ولغتك وهما فى نهاية الأمر ينتميان إلى لغة جماعية واحدة .

للتفاهم مع أفراد الطائفة الأخرى تسمى لغة مشتركة [Bloomfield يسميها Standard ولم نترجمها بالفصحى لأن هذا اللفظ يشير إلى اللغة الأدبية وليس من الضرورى أن تكون كذلك] .

٥٥ — تعريف : إذا حدث عن التطور فى لغة ما وجود جماعة من أبنائها يستحيل التفاهم بينها وبين جماعة أخرى فإن لكل جماعة لغة ذات قرابة بلغة الجماعة الأخرى .

٥٦ — قضية ت ٣ . قد تتغير الصوتيمات أو أنواع الصوتيمات بالتدريج [مثال التغير فى الصوتيمات تغير القاف الفصحى إلى همزة فى المصرية أو الجيم الفصحى إلى جيم قاهرية معطشة . أما التغير فى أنواع الصوتيمات فمثاله فى المصرية انقراض النوع الذى يسمى « صوتيمات بين الأسنان » وهى التى يتطلب النطق بها وضع طرف اللسان بين الأسنان العليا والسفلى . وكانت فى الفصحى الثاء والذال والظاء] .

٥٧ — تعريف ، هذا التغير يسمى « التغير الصوتى » .

واستعمال المصطلح « صوتيم » هنا يعنى أن التغير لا يشمل عنصر الدلالة [لأن الصوتيم كما مر ليس له دلالة ، حيث أن أقل وحدة دلالية وهى الدلاليم تقابل الصرفيم] .

وإذا أخذنا فى الاعتبار القضيتين اللتين تحددان عدد الصوتيمات (قضية ٥ و ٦) فإن هذا يعنى أن التغير يشمل الصوتيمات فى كل وضع من أوضاعها ، كما يعنى ضرورة إسقاط أى صوتيم قد تغير من حسابنا .

٥٨ — قضية ت ٤ : قد يؤثر التغير الصوتى فى الصوتيمات أو أنواع الصوتيمات فى الأوساط التى توجد فيها مع صوتيمات معينة أو أنواع معينة من الصوتيمات .

٥٩ — تعريف . يسمى هذا التغير بالتغير الصوتى المشروط .

٦٠ — قضية ب ٦ . قد ينتج عن التغير الصوتى أن يحل أمر واحد محل أمور متعددة [مثاله فى المصرية الهمزة التى صارت تحل محل القاف وهمزة القطع فى الفصحى فى مثل ألب (قلب) وأرض (أرض)] .

٦٢ — تعريف . يسمى هذا التغير باسم « تغير المحاكاة »(١) .

٦٣ — تعريف . تغير المحاكاة الذى يؤدى إلى ابتكار وحدة قاموسية (قاموسيم)(٢) جديدة أو زيادة شكلها يسمى بالتوسع(٣) .

[مثال الابتكار الفعل المصرى « جاب » وهو نتيجة المحاكاة التى جعلت تقسيم الجملة « جاء بالكتاب » ، « جاب الكتاب » . ومثال زيادة الشكل الكلمة «صنيورة» التى تستعمل فى الريف بدلا من «صورة» . و «صنيورة» مقترضة من الإيطالية بمعنى « سيدة » وقد حدث مزج بينها وبين الكلمة العربية « صورة » فى بعض القرى نظراً للشبه الصوتى والدلالى بينهما . ولو قارننا « صنيوره » بصورة الفصحى لوجدنا فى الأولى زيادة فى الشكل] .

٦٤ — تعريف . تغير المحاكاة الذى يسبب توسيع مجال المعنيم يسمى « التكييف »(٤) ومثاله فى اللاتينية تغير المحاكاة الذى بسببه تصير reddere إلى rendere وبسبب هذا التغير شمل الصرفيم end هذه الكلمة بالإضافة إلى الكلمات التى يوجد فيها مثل :

attendere, pendere,d rendere الخ .

٦٥ — تعريف . « التكييف » الذى يجعل بديلا يحل محل آخر يسمى

---

(١) analogic change
(٢) glosseme
(٣) contamination
(٤) adaptation

« المحاكاة النسبية » (١) . ومثال ذلك كلمة book الإنجليزية [وقد كانت فى الأصل ذات حركة طويلة ولهذا كانت تجمع بتغيير الحركة من ضمة طويلة ضيقة إلى كسرة طويلة ضيقة كما يحدث فى foot وجمعها feet , goose وجمعها geese وكذلك كانت تجمع book . ولكن حدث أن قصرت الضمة الطويلة فيها بتأثير المحاكاة . وكانت النتيجة أن تغير جمعها فأصبح جمعها بإضافة « s » بعد أن كان جمعاً بتغير الحركة] .

٦٦ — تعريف . المحاكاة التى تجعل «مكوناً» يستعمل بدلا من «مكون» آخر تسمى محاكاة شكلية .

وقد تكون هـذه المحاكاة فى نفس الوقت « توسيعاً » أو « تكييفاً » أو « محاكاة نسبية » . وفى اللغات التى يمكن فيها تحديد الأصل واللاصقة فإن العادة قد جرت على التفريق بين المحاكاة الشكلية المادية (٢) (وهى التى تؤثر فى الأصل) وبين المحاكاة الشكلية فى القواعد (وهى التى تؤثر فى اللواصق) .

٦٧ — تعريف . تغير المحاكاة الذى يؤثر فى الكلمات يسمى « التغير الدلالى » (٣) .

وقد يكون هذا التغير ـ بطبيعة الحال ـ توسعاً أو تكييفاً أو نسبياً . [مثال ذلك فى العربية الحديثة فى مصر الفعل « قبض » فى الاستعمال « قبض مبلغ جنيهين » والفعل « قبض » فى الاستعمال « قبض على اللص » . وكلا الاستعمالين له أصله فى العربية الفصحى فى مثل « قبض على يده » . وقد بقى الاستعمال المصرى الأول على نفس نسق الاستعمال الفصيح حيث تعدى

---

(١) Proportional analogy

(٢) material formal analogy

(٣) semantic change

الفعل بالحرف « على » ، أما الاستعمال الثانى قد حدثت فيه محاكاة تمثلت فى استعمال الفعل بدون حرف الجر كما يحدث مع الفعل « أمسك » . وفى المصرية المكتوبة وغير المكتوبة يختص « قبض على » بفعل يقوم به رجال الأمن . أما « قبض » بدون حرف الجر فيختص بأخذ المال . وهكذا يمكن أن نقول بنشأة وحدة قاموسية جديدة معناها « تسلم المال » . وهذا هو ما يسمى « بالتوسع » ، وهو فى نفس الوقت « تغير دلالى » .

ومثال التغير الدلالى الذى يعتبر فى نفس الوقت « تكييفاً » استعمال « ات » لاصقة جمع المؤنث فى المصرية لجمع الأسماء الأجنبية المقترضة مثل تلفونات أو تومبيلات فيلات تلغرافات الخ مع أن مفرداتها ليست بالضرورة مؤنثة الصيغة .

ومثال « التغير الدلالى » الذى يعتبر فى نفس الوقت تكييفاً حلول تاء التأنيث فى المصرية محل ألف التأنيث الممدودة والمقصورة . وفى العربية الفصحى يوجد ثلاثة بدائل لتأنيث الاسم المفرد ، التاء فى مثل قائمة والألف المقصورة فى مثل كبرى والألف الممدودة فى مثل حمراء . وقد حدث فى المصرية تغير صوتى يتمثل فى سقوط الهمزة الأخيرة وقصر الحركة الطويلة فى آخر الكلام والإتيان بعدها بهاء ساكنة . وكانت النتيجة أن أصبحت الألف المقصورة والممدودة تماثل من ناحية الشكل تاء التأنيث فى المصرية[1] .

٦٨ — قضية ت ٧ . يؤدى تغير المحاكاة بصفة غالبة إلى الانصراف عن القاموسيات غير المضطردة والقاموسيات التى يختلف سلوكها عن نظائرها ويكون مقدار هذا الانصراف بنسبة عكسية مع كثرة استعمالها .

(١) شرحنا ذلك كله بالتفصيل فى مذكراتنا عن « التطور اللغوى » لطلاب دار العلوم — السنة الثالثة ألقيناها عام ١٩٥٧ .

وهذه القضية بالضرورة ، غير دقيقة الصياغة لأننا لانعرف إلا القليل عن كيفية إحلال شكل محل شكل آخر (١) . وكل ما نعرفه عن ذلك لايتعدى ما ينتج عن عدد من العوامل ، مثل الاشتراك اللفظى والكلمات المحرمة (٢) وسوى ذلك من انحراف القاموسيات ، أى عدم كفايتها وما يترتب على ذلك من آثار . انظر كتاب :

Gillieron. pathologia et therapeutique verbales

المجموعة اللغوية الجزء ١١ باريس سنة ١٩٢١ .

٦٩ — قضية ت ٨ . ينزع كل من يتكلم لغة أو لهجة أجنبية إلى أن يضع صفات من لغته الأصلية مكان الصفات التى تشبهها فى هذه اللغة أو اللهجة .

٧٠ — تعريف . يسمى هذا باسم الإحلال اللغوى .

٧١ — تعريف . يسمى الإحلال اللغوى الذى يحدث فى الصوتيمات باسم « الإحلال الصوتى » .

٧٢ - قضية ت ٩ ، قد يأخذ كل من يسمع لغة أو لهجة أجنبية بعض صفاتها ويستعملها فى كلامه .

٧٣ - تعريف . يسمى هذا باسم « القرض اللغوى » .

٧٤ - تعريف . إذا حدث القرض اللغوى فى الكلمات سميت « كلمات مقترضة » .

٧٥ - قضية ت ١٠ . قد تتغير الصوتيمات التى نتجت عن المحاكاة والكلمات المقترضة حتى تنسجم مع النماذج الصوتية للغة .

[مثال ذلك مقطع النسب «جى» التركى الذى اقترضته المصرية فى الكلمات: عربجى ، جزمجى ، عطشجى ، بلطجى . والصوتيم الأول فيه شبيه بالجيم المعطشة فى العربية . وقد تغير فى لهجة القاهرة إلى جيم غير معطشة حتى يتناسب مع النموذج الصوتى لهذا الصوتيم المصرى .

---

(١) **replacement**   (٢) **word—tabu**

ومثال ذلك أيضاً الكلمة « تلفون » وقد اقترضت فى المصرية وعوملت من ناحية تصريفها معاملة الكلمات المصرية ، فجمعت بالألف والتاء «تلفونات» واعتبرت ثلاثية المادة فأخذ منها الفعل « تلفن » وصارت التاء الأولى فيها مماثلة لتاء « تعلم » ، « تكلم » ، وهى ما يسميه النحاة بالتاء الزائدة . نقول بهذا مع العلم بعدم وجود فعل « لفن » كما هى الحال بالنسبة للفعل «تعلم» و « تكلم » ويوجد لهما نظير مجرد هو « علم » أو نظير مزيد بغير التاء مثل « كلم »] .

٧٦ ـ تعريف ، يسمى مثل هذا باسم « التغير الصوتى المفاجىء »[١] .

٧٧ ـ قضية ت ١١ . قد تنقرض القاموسيات فلا تستعمل .

انظر التعليق السابق فى القضية ت رقم ٦٨ .

* * *

هذه القضايا والتعريفات التى وضعها بلومفيلد لتكون أساساً للتحليل اللغوى التاريخى وغير التاريخى . ونظراً لاختصار العبارة التى كتبت بها ودقتها فقد رأينا أن نترجمها عن الأصل الإنجليزى . ولكننا وجدنا من الضرورى أن نجعل تعليقاتنا تختلف عن تعليقات بلومفيلد على القضايا والتعريفات ، وخاصة بالنسبة للأمثلة التى أتى بها من الإنجليزية أو غيرها من اللغات الأوربية ، وقد ذكرنا بعض هذه الأمثلة كما هى فى الأصل الإنجليزى وزدنا بعض التعليقات بين قوسين [ ] توضيحاً للقارىء العربى ، كما أبدلنا التعليقات الإنجليزية أحياناً بتعليقات استعملنا فيها أمثلة من اللغة العربية الفصحى أو اللهجة المصرية ووضعناها بين هذين القوسين .

وفى رأينا أننا حين نورد القضايا وتعريفات بلومفيلد نضع الأساس لمناقشات قادمة تكمل هذا العمل ، وليس الأمر ـ كما قد يظن البعض ـ مجرد إطالة أو حشو لا فائدة منه .

---

(١) Sudden sound change

النفى فى العربيـة

نود قبل أن نناقش النفى فى العربية ولهجاتها أن نناقش بعض المبادىء العامة المتصلة بالبحث اللغوى .

(ا) الشكل والمضمون: ويقصد بالشكل التركيب المادى للعبارة ، أما المضمون فهو دلالة العبارة . ودراسة الشكل تعنى الباحث اللغوى وحده وهى دراسة مادة اللغة من أصوات ومفردات وقواعد ، أما دراسة المضمون - أو المعنى - فهى مجال لبحث عالم اللغة وعالم النفس وعالم الاجتماع. ونظراً لاختلاف طبيعة الشكل عن طبيعة المعنى فإن علاج كل من الأمرين يسير على نهج يختلف عن النهج الذى يسير عليه علاج الأمر الآخر ، فدراسة الأشكال اللغوية تبدأ بدراسة مادة الصوت وطبيعتها ثم القيام بعمليات تجريدية تحدد الوحدات الصوتية والنظم التى تخضع لها، ثم ترجع بعد ذلك لدراسة الألفاظ وطريقة تكوينها، وتنتهى بدراسة النظم التركيبية التى على أساسها تتكون الجمل وأجزاء الجمل . أما دراسة المعنى فهى فى واقعها دراسة نفسية تتعرض للعلاقة بين اللفظ والمدلول الخارجى وللانطباعات النفسية التى تصحب اكتساب الرمز اللغوى ودلالته . وهى إلى جانب هذا دراسة اجتماعية لما بين الظروف الاجتماعية الخارجية من علاقة تربطها بمدلولات الألفاظ .

ومن أجل هذا ينادى علماء اللغة المحدثون بالفصل الواسع بين دراسة الشكل ودراسة المضمون وهو ما سنسير عليه هنا .

(ب) دلالات على مختلف المستويات :

لكل تركيب لغوى دلالة ولا شك. وعلى الباحث اللغوى أن يربط بين أجزاء الدلالة الكلية للتركيب والأجزاء المادية للتركيب نفسه . ومن ثم يقال بأن من الدلالات ما ترتبط بصفة صوتية معينة وأن منها ما يرتبط بلفظ بعينه (وهى الدلالة القاموسية) وأن ما منها ما يرتبط بالتركيب نفسه بصرف

النظر عن الألفاظ التى تدخل فيه (وهى الدلالة النحوية) ، كما أن منها نوعاً غير لغوى لا يعنينا وهو دلالة الظرف الخارجى الذى تستعمل فيه العبارة ، وسنقدم للقارىء طائفة من الأمثلة لبيان كل ذلك .

١ — إذا اعتذر لك صديق عن عدم الوفاء بموعد حدده معك بحضور أبيه، وكنت تعلم أن أباه لم يحضر فقلت له مستفهماً استفهاماً إنكارياً « وهل حضر أبوك ؟ » ، فإن الجملة التى تذكرها جملة استفهام من وجهة النظر التركيبية ، ولكن النغمة التى تلقى بها الجملة تفرض أن يكون معناها النفى . وهذا يعنى أن تكون فكرة النفى مستفادة من النغمة التى يلقى بها الكلام ، « والنغمة » صفة صوتية للتركيب أى أن النفى من مفهوم جزء من أجزاء التركيب المادية .

٢ — فى الجمل التالية جميعاً فكرة نفى الأكل :

« امتنع عن الأكل » ـ « لم يأكل » اللا أكل ضار بالجسم » .

ولكن لكل منها طريقة خاصة فى الإشارة لدلالة النفى ، فالنفى فى الجملة الأولى من دلالة مادة الاشتقاق (م . ن . ع) وهى دلالة توجد فى جميع المفردات التى تشتق من هذه المادة سواء كانت فعلا أم مصدراً أم اسم فاعل الخ . ودلالة النفى فى الجملة الثانية ترتبط بلفظ « لم » بخصوصه فتوجد حيث يوجد وترتفع حيث يزول . أما فى الجملة الثالثة فدلالة النفى مرتبطة بجزء الكلمة وهو السابقة prefex « لا » التى نحت منها ومن المصدر « أكل » لفظ واحد وقع مبتدأ . وهذه الدلالات على اختلاف أنواعها من دلالة الألفاظ يرجع إليها فى قاموس اللغة لا فى قواعدها .

٣ — الجملتان « ضرب محمد » و« ضرب محمداً » فيهما صيغة فعلية واسم متأخر . ولكن بينهما اختلافا يتمثل فى العلاقة بين الاسم المتأخر والفعل وهى تسمى علاقة الفعل بالفاعل ، أما فى الثانية فهى العلاقة المسماة بعلاقة الفعل بالمفعول . والاختلاف فى العلاقة بين الجملتين يقابل اختلافا شكلياً بينهما يتمثل فى رفع الاسم فى الأولى ونصبه فى الثانية .

وعلى هـذا فمن الممـكن القـول بأن دلالة الفاعلية دلالة نحوية لأنها ترتبط بعلامات شـكلية فى الجملة وجودا وعدما وهذه العلامات الشـكلية هى (١) تقـدم فعل (أو مايناظر الفعل كاسم الفاعل) (٢) تأخر اسم (٣) رفع الاسم المتأخر . كما يمـكن القول بأن دلالة المفعولية دلالة نحوية أيضا لأنهـا ترتبط بعلامات شـكلية هى : (١) نصب الاسم (٢) وجود صفات مادية فيه تجعله مختلفا عن المفعول المطلق والمفعول لأجله والظرف إلخ . مثل إمكان ورود صفة له وعدم اشتقاقه من مادة الفعل على وزن المصدر إلخ . وهنا أمر ثالث ينبغى أن نأخذه بعين الاعتبار وهو تأثير كل من جزئى الجملتين السابقتين فى الآخر على نحو ما ، فمثلا لو تغيرت صيغة الفعل « ضرب » إلى صيغة المبنى للمجهول لصارت كلمة « محمد » فى الجملة الثانية مرفوعة لا منصوبة واتفقت مع الفعل فى التذكير والتأنيث .

نستطيع الآن أن نفرق بين الدلالة التركيبية والدلالة غير التركيبية والأولى منهما دلالة التركيب نفسه لا دلالة جزء خاص من أجزائه وهى تتميز ببعض العلامات أو الصفات التى توجد فى التركيب عند وجود هذه الدلالة والتى تنعدم مع انعدامها . وبهـذا المقياس نود أن نعرف ما إذا كان النفى فى العربيـة الفصحى ولهجاتها من الدلالات التركيبية ومن ثم يـكون داخلا فى حدود علم النحو أو من دلالات الألفاظ وحدها وبذلك يكون داخلا فى نطاق القاموس .

النفى فى العربية الفصحى

فى اللغة العربية الفصحى ثنائية تركيبية تتمثل فى الإسناد الفعلى (أو الجملة الفعلية) والإسناد الاسمى ، (أو الجملة الاسمية) . ولـكل من هذين التركيبين طريقته الخاصة فى التعبير عن مختلف الدلالات . والزمن فى الجملة الاسمية

يعبر عنه بالفعل «كان» وجودا أو عدما فالزمن فى الجملة «محمد قائم» حال لعدم وجود ماضى الفعل «كان»، بينما هو ماض فى الجملة «كان محمد قائما» لوجودها .. أما التعبير عن الزمن فى الجملة الفعلية فيكون باستعمال صيغة الماضى أو المضارع فى ظروف خاصة. كما أن تأكيد الجملة الاسمية يتم باستعمال «ان» فى أول الجملة، ولكن تأكيد الجملة الفعلية يكون باستعمال نون التوكيد أو «قد» إلى غير ذلك.

وما يحدث من تعدد الطرق المعبرة عن النحوية فى هذه الدلالات يحدث كذلك فى دلالة النفى، فلها فى الجملة الفعلية طريقة تختلف عن طريقة التعبير عنها فى الجملة الاسمية عن النحو الآتى:

فى الجملة الفعلية

(ا) حضر محمد	نفيها	ما حضر محمد لم يحضر محمد
(ب) يحضر محمد	نفيها	لا يحضر محمد
(ج) سيحضر محمد	نفيها	لن يحضر محمد لما يحضر محمد

وبتأمل هذه الأمثلة نلاحظ حدوث بعض الفروق بين جملة الإثبات وجملة النفى وهى:

أولا: استعمال صيغة المضارع بدلا من صيغة الماضى عند النفى بلم.

ثانيا: وجود علامة إعرابية تميز بين الفعل المثبت والمنفى فى بعض الحالات. وهذه العلامة هى الفتحة أحيانا والسكون أحيانا أخرى.

ثالثا: عدم وجود علامات إعرابية أو أى صفات شكلية للتمييز بين الفعل المثبت والمنفى فى حالات أخرى مثل نفى الفعل «بما» أو «لا».

ولا يمكن اعتبار الصفات الشكلية المذكورة فى «أولا» و«ثانيا» من مميزات أسلوب النفى الفعلى لما يأتى:

١ — أن تغير صيغة الفعل من الماضى إلى المضارع ليس خاصا بالنفى حيث أنه يحدث لتغيير زمن الفعل فى مثل « ضرب » و « يضرب » و « سيضرب » .

٢ — أن وجود علامة إعرابية فى الفعل المنفى لا يمكن أن يكون علامة للنفى لاعتبارين ، أحدهما أن هذه العلامة ليست من نوع واحد فهى مرة فتحة (مع لن) ومرة سكون (مع لم ولما) ، وثانيهما أن هذه العلامة ليست قاصرة على النفى فالنصب يكون أيضا مع « كى » وهى للتعليل ، ومع « إذن » وهى للاستنتاج ، ومع « ان » المصدرية . والجزم يكون مع « ان » الشرطية و « لا » الناهية . ومعنى هذا عدم اختصاص العلامة بدلالة النفى . هذا إلى جانب وجود أفعال منفية أخرى لاتختلف حالتها الإعرابية عنها عندما تكون مثبتة وذلك عند النفى « بما » و « لا » . والخلاصة أنه لايوجد فى حالات نفى الفعل علامة شكلية ترتبط بدلالة النفى وجودا وعدما وتختص بالنفى دون سواه من الدلالات الأخرى . ولكن الأمر الذى يتحقق مع وجوده وجود دلالة النفى والذى تنعدم مع انعدامه هذه الدلالة هو استعمال ألفاظ بعينها هى : « ما » و « لم » و « لا » و « لن » و « لما » .

وهكذا يمكن القول بأن النفى فى الفعل ليس من دلالة التركيب بل دلالة هذه الألفاظ بعينها .

ب — فى الجملة الإسمية :

الإثبات	النفى (ا)	النفى (ب)
١ — محمد قائم	ليس محمد قائما	ليس محمد بقائم
	ما محمد قائم	ما محمد بقائم
٢ — كان محمد قائما		لم يكن محمد بقائم

٣ — فى الدار رجل	لا رجلَ فى الدار لا رجلٌ فى الدار
٤ — هذه ساعة عمل	لات ساعة عمل

وبتأمل هذه الأمثلة نلاحظ أن التغير المادى الذى يفرق بين الإثبات والنفى هو استعمال بعض الحروف (أو الأفعال إذا صح أن « ليس » من الأفعال) واختلاف الحالة الإعرابية فى جزء الجملة المسمى بالخبر ولكن هذا الاختلاف بين الإثبات والنفى ليس علامة تفرق بينهما ، حيث أن نصب الخبر يحدث مع كان وبقية أخواتها غير ليس وهى جميعا لا تفيد النفى . ومن ثم لا يكون النفى مستفادا من التغير الشكلى فى الجملة بل من المدلول القاموسى للفظ « ليس » بالذات .

وما يقال عن « ليس » يقال عن « لات » و« ما » و « لا » التى لنفى الوحدة فى المثال « لارجل فى الدار » ، حيث أن الأولى مساوية لليس فى النفى والإعراب وأن الثانية تؤثر فى إعراب الجملة نفس الأثر الذى يحدث عند استعمال « إن » وأخواتها . ومن ثم يكون النفى فى جملتيهما نفيا قاموسيا أى مستفادا من معنى اللفظ ، ذاته لا نفيا تركيبيا . على أنه ينبغى أن نذكر الأمور الآتية إلى جانب ما مر .

١ — بالنسبة للمثال « لا رجل فى الدار » نلاحظ أن استعمال « لا » يرتبط بصفتين شكليتين فى الاسم التالى لها لا يحدثان مع سواها . وهما كون الاسم نكرة ولزومه الفتحة دون تنوين . ولما كانت هاتان الصفتان لا توجدان فى حالة أخرى غير حالة النفى بلا فإن من الممكن القول بأن النفى هنا لا يتميز باستعمال « لا » وحدها بل بوجود صفات شكلية فى بقية أجزاء التركيب كذلك . ولهذا يتحتم اعتبار النفى هنا من دلالة التركيب كله لا من دلالة « لا » وحدها .

٢ — بالنسبة للأمثلة « ليس محمد بقائم » و « ما محمد بقائم » و « لم يكن

محمد بقائم»، يلاحظ وجود صفة شكلية فى التركيب هى الباء التى تسبق الخبر. ولما كانت هذه الباء لا توجد إلا فى حالة النفى فإن من اللازم أن تعتبر أن الذى يدل على النفى هنا هو المفردات «ليس» و «ما» و «لم يكن» إلى جانب التركيب كله الذى تميز بصفة شكلية (هى الباء والجر) وهذه الصفة لا توجد فى غير النفى. ومن ثم يمكن القول بأن النفى فى هذه الحالات ليس نفيا قاموسيا بل هو نفى تركيبي[1].

وأخيراً نلخص رأينا فى ألفاظ النفى فى العربية الفصحى وهو أنه فى الوقت الذى نقول فيه بأنه ليس فى العربية الفصحى نظام تركيبي يسمى النفى، فإن بعض الألفاظ التى تدل على النفى هى وحدات فى نظام تركيبي عربى هو النظام الإعرابى.

النفى فى اللهجة المصرية

نلاحظ لأول وهلة أن جميع الألفاظ التى تدل على النفى والتى تكوّن وحدات داخل النظام الإعرابى فى اللغة الفصحى، قد سقطت من الاستعمال

---

(١) نود أن نذكر هنا على سبيل الاستطراد ما نقل إلينا عن لهجة «الرياض» من استعمال طريقة للنفى لها فى نظرنا ارتباط بهذه الباء وتلك هى نفى الضمائر فى هذه اللهجة كما يظهر فى هذا الجدول :

أنا	ما ناب
أنت	ما انتاب
هو	ما هوب
	الخ . .

ونحن نفترض أن هذه الضمائر المنفية هى امتزاج بين الضمائر المثبتة والباء التى توجد فى الأمثلة «ما أنا بقائم» ما «هو بقائم» الخ.

ودلالة الباء على النفى ليس غريبا على اللغات السامية فهى تستعمل النافية فى الحبشية والعبرية على ما يقول الدكتور ابراهيم أنيس.

(من أسرار اللغة ص ١١١، القاهرة سنة ١٩٥١).

فى اللهجة المصرية . وهكذا انقرضت فى هذه اللهجة الألفاظ « ليس » و « لم » و « لن » و « لما » مع انقراض الوحدات الإعرابية الأخرى مثل « لعل » ولام الأمر . وسبب ذلك انقراض الحالات الإعرابية وهو ما استلزم انقراض « الأدوات » التى « تسببها » .

وكانت النتيجة أن لم يبق فى المصرية من أدوات النفى العربية الفصحى غير « ما » و « لا »[1] ، وليس لأيهما فى الفصحى وظيفة إعرابية ، ولكن هذا النقص فى المفردات الدالة على النفى فى المصرية قد عوض بزيادة لفظ جديد يستعمل أيضاً للتعبير عن النفى . وهو لفظ « مش » . و « مش » تخفيف للصيغة « ماهش » التى تعتبر نفيا لضمير الغائب المذكور المفرد . وهى كلمة أخرى غير « ماهش » بدليل استعمالها للمفرد والمؤنث فى مثل « فاطمة مش جايه » وللجمع مثل « هم مش جايين » . وبالإضافة إلى هذا تستعمل المصرية لاصقة أخيرة وهى الشين الساكنة تلحق الكلمات المنفية على النحو الذى سنذكره .

ويتم النفى فى اللهجة المصرية على النحو الآتى :

١ — فى الجملة الخبرية

أولا — نفى الأسماء :

تنفى الضمائر بسبق « ما » عليها واتصال اللاحقة «ش» بآخرها فتكون « أنا » « مانش » و « انت » «مانتش » و « انت » « ما انتيش » و « هو » « ماهش » و « هى » « ما هيش » أو « ماهياش » .

وتكون « احنا » « ما احناش » أو « ما احنش » وانتم « ما انتوش » أو « ماانتش » و « وهم » « ماهماش » أو « ماهمش » .

أما غير الضمير (سواء كان اسما مشتقا مثل جاى أو غير مشتق مثل

(١) لا نعنى هنا « لا » النافية للجنس .

كرسى فينفى بوقوعه بعد الأداة ، « مش » ولا يحدث فى صيغته أى تغيير وذلك مثل « جاى » نفيها « مش جاى » .

« على » نفيها « مش على » .

ثانياً — نفى الفعل :

يتم نفى الفعل بوقوعه بعد « ما » واتصال اللاصقة « ش » فى آخره إذا لم يكن متصلا بتاء المتكلم أو المخاطب إلخ أو بياء المتكلم أو كاف المخاطب إلخ[1] فإذا كان متصلا باحدى هذه اللواصق أتت الشين بعدها . مثل :

« كل » نفيها « ما كلش » .

« كلت » نفيها « ما كلتش » .

« ضربك » نفيها « ما ضربكش » .

« ضربناك » نفيها « ما ضربناكش » .

ولكن صيغة المضارع التى تتصل بأولها اللاصقة الدالة على الاستقبال (وهى الحاء المفتوحة) لا تنفى بهذه الطريقة بل بسبق كلمة النفى « مش » كما فى الأسماء وذلك مثل :

« حياكل » نفيها « مش حياكل » (ولا يقال ما حياكلش) .

ثالثاً — نفى الاسم اللاحق للحرف[2] :

تستعمل للنفى فى هذه الحالة الأداة « مش » ولا يحدث تغيير سوى هذا مثل :

« فى البيت » نفيها « مش فى البيت » .

رابعاً — نفى الضمير المتصل بالحرف[2] :

---

(١) أى ما يعادل ضمير الرفع وضمير النصب فى العربية الفصحى .

(٢) لم نقل « بحرف الجر » لأن الجر حالة إعرابية انقرضت من المصرية .

ينفى بسبق « ما » واتصال « ش » فى آخره مثل :

« فيه » نفيها « ما فيهش » .

« عليك » نفيها « ما عليكش » .

٢ — فى جملة القسم :

يختلف نفى جملة القسم عن نفى جملة الخبر فيما يأتى :

(ا) إذا كانت الكلمة تنفى « بما » واللاصقة « ش » فى حالة جملة الخبر فإنها فى حالة جملة القسم تنفى « بما » وحدها مثل :

الخبر المنفى	القسم المنفى
أنا ما كلتش	والله أنا ما كلت
مانش جاى	والله مانا جاى

(ب) إذا كانت الكلمة منفية بالأداة « مش » فى جملة الخبر فإنها فى جملة القسم تنفى « بما » مثل :

« ما نش جاى »	والله مانا جاى
« ما عليكش حاجة »	والله ما عليك حاجة

٣ — فى جملة الاستفهام :

تفرق « نغمة » الجملة فى المصرية بين كونها خبرية أو استفهامية وذلك فى الجمل التى لا تشتمل على كلمة خاصة بالاستفهام مثل « فين » و « مين » و « هو » . وهذا يعنى عدم وجود فرق فى الألفاظ أو تركيبها بين جملة الخبر وجملة الاستفهام سوى استعمال كلمة استفهام .

والاستفهام المنفى فى المصرية على ثلاثة أنواع :

(ا) الاستفهام باستعمال النغمة وحدها وذلك مثل « انت ما كلتش » . وهذه الجملة تفيد الإخبار المنفى إذا نطقت بنغمة هابطة أخيرة . أما إذا نطقت بنغمة صاعدة أخيرة فإنها تفيد الاستفهام المنفى الذى يناظر التركيب الإنكليزى haven't you eaten والتركيب العربى الفصيح « أولم تأكل » .

(ب) الاستفهام باستعمال الأداة والنغمة . ونفى هذا التركيب يكون باستعمال « مش » فى أول التركيب ، أما بقية التركيب فلا فرق بينه وبين التركيب المثبت ، ومثاله المجموعة : ج فيما يأتى :

	(أ)		(ب)
الاثبات	« انت كات »	النفى	« انت ما كاتش »
	« فيه حاجه »		« مافيش حاجه »
	« الواد فى البيت »		« الواد مش فى البيت »
	« انت محمد »		« ما انتش محمد »

(ج)

الاستفهام النفى	« مش انت كات »
	« مش فيه حاجه »
	« مش الواد فى البيت »
	« مش انت محمد »
	... الخ .

(ج) الاستفهام التقريرى :

وهو تركيب يتصدر بمضارع فعل الكينونة منفياً « بما » ، ومتصلا فى آخره باللاصقة « ش » أو باللاصقة « ش » وحدها دون « ما » .

الإثبات	النفى	الاستفهام التقريرى
« فاطمة كات »	«فاطمة ما كاتش»	ما تكونش فاطمة كات أو تكونش فاطمة كات
« انت جاى »	« مانتش جاى »	ما تكونش انت جاى أو تكونش انت جاى
« فيه حاجه »	« ما فيش حاجه »	ما يكونش فيه حاجه أو يكونش فيه حاجه

النفى بلا :

« تستعمل « لا » فى المصرية فى نفى المعطوف والمعطوف عليه مثل :

« لا كل ولا شرب » ، « لا محمد ولا على » ، «لا أنا ولا انت» ، «لا به ولا عليه» الخ . .

وليس هناك أى فرق بين هذا التركيب المنفى والتركيب المثبت غير استعمال « لا » قبل المعطوف والمعطوف عليه .

٭ ٭ ٭

من كل ما مر نرى أن فى اللهجة المصرية أدوات مختصة بالتركيب المنفى وأن كلا من هذه الأدوات يستعمل بطريقة معينة فى كل نوع من أنواع التركيبات التي تعرضنا إليها . وهذا يعنى أن هذه الكلمات الدالة على النفى تستعمل وفق نظام تركيبي معين ، فاستعمال « مش » مثلا خاضع لظروف معينة تخالف الظروف التى تستعمل فيها « ما » ، « والشين » والظروف التى تستعمل فيها « ما » وحدها أو الشين وحدها الخ .

ويمكن تلخيص التطور الذى طرأ على اللهجة المصرية فيما يأتى :

١ — انقراض أدوات النفى الفصحى فيما عدا « ما » و « لا » فى تركيب خاص .

٢ — استعمال اللاصقة « ش » فى حالات عديدة من حالات النفى بما .

٣ — ابتكار أداة نفى جديدة هى « مش » .

٤ — تحول النفى فى المصرية بحيث أصبح نظاما تركيبيا بعد أن كان فى العربية الفصحى مجرد ألفاظ تدل على النفى دلالة قاموسية .

النفى فى اللهجة العراقية:

سنتعرض هنا للنفى فى كل من لهجتى الموصل وبغداد وقد استقينا مادتنا عن هاتين اللهجتين من المعلومات التى أدلى بها إلينا بعض زملائنا وطلابنا من أبناء اللهجتين . وعلى هذا فإن هذه المادة تمثل لهجة المثقفين فى كل من هاتين المدينتين .

ا — لهجة الموصل :

تطور النفى فى هذه اللهجة إلى وضع أبسط مما وصل إليه فى لهجة بغداد واللهجة المصرية . فقد انقرضت منها جميع الألفاظ التى كانت تستعمل فى العربية الفصحى فى النفى فيما عدا « ما » و « لا » . وهذه الأخيرة تستعمل استعمالا محدوداً . وذلك على التفصيل الآتى :

أ — النفى « بما » :

تستعمل « ما » لنفى الأسماء (ضمائر وغير ضمائر مشتقة وغير مشتقة) وفى نفى الأفعال ماضية أو مضارعة وذلك مثل :

« ما أنا » و « هذا ما محمد » و « هذا ما موجود » و « هذا ما يأكل » « هذا ما نام » .

ب — نفى العطف :

أما فى حالة (العطف فينفى المعطوف عليه « بما » ويجوز استعمال « لا » أو « ما » لنفى المعطوف مثل :

« هذا ما محمد ولا على » .

« هذا ما أكل ولا شرب » .

« هذا ما أكل وما شرب » .

ب ـ لهجة بغداد :

نلاحظ فى هذه اللهجة ما لاحظناه فى اللهجة المصرية من انقراض جميع أدوات النفى ذات الوظيفة الإعرابية مثل « ليس » و « لم » و « لما » ومن أن ما بقى من أدوات النفى الفصحى فيها يتمثل فى « ما » و « لا ». كذلك فعلت اللهجة البغدادية ما فعلت اللهجة المصرية من تركيب « ما » مع ضمير الغائب المفرد المذكر وابتكار أداة جديدة للنفى . ولكن بين اللهجتين اختلافاً وهو أن هذه الأداة المصرية هى « مش » بوجود الشين الأخيرة التى تتصل بالضمير المنفى المصرية ، أما فى البغدادية فإنها « مو » وهى صيغة مخففة [1] من « ما هو » . وتسير اللهجة البغدادية فى استعمال ألفاظ النفى هذه على النحو الآتى :

النفى فى الجملة الخبرية :

أولا ـ نفى الاسم :

إن كان الاسم الذى يراد نفيه جامدا أو ضميراً ، نفى بأن تسبقه « مو » مثل : « هذا مو محمد » و « هذا مو آتى » .

وهناك مثال واحد يستعمل فيه الاسم الجامد منفياً « بما » وهذا المثال هو : « ما أحد ما كو » .

أما الاسم المشتق فينفى بأن تسبقه « مو » أو « ما » مثل :

« أنا ما موجود » أو « أنا مو موجود »

وإذا عطف اسم منفى على اسم منفى آخر تكون أداة النفى فى الاسم

---

(١) تعرضنا للصيغ المخففة فى محاضرات مطبوعة ألقيناها على طلبة الصف الثالث بكلية دار العلوم موضوعها « التطور فى الأصوات » وفى مذكرات أمليت على طلبة الصف الثانى بكلية الشريعة — جامعة بغداد .

الثانى « لا » أما نفى الاسم الأول فيجوز أن يـكون باستعمال « مو » أو « لا » مثل :

« لا أنى ولا أنت » أو « موآنى ولا أنت » .

« لا محمد ولا على » أو « مو محمد ولا على » .

« لا ما كاين أو شاربين » أو « مو ما كاين ولا شاربين » .

وإذا كان الاسمان المتعاطفان مفعولين لفعل منفى تحتم أن يكون النفى فيهما معاً باستعمال « لا » مثل :

« ما شفت لا محمد ولا على » .

وإذا كان تعدد الأسماء المنفية بدون الواو العاطفة نفيت جميعاً « بلا » مثـــل :

لا محمد ! لا على !　　　　لا ما كاين ! لا شاربين

ثانياً — نفى الفعل :

لنفى الفعل تستعمل « ما » ويكون موضعها قبل الفعل مثل :

« ما شرب » و « ما يشرب » و « ماراح يأكلون »

وإذا عطف فعل منفى على فعل آخر استعمل فى نفيهما «ما» أو«لا» مثل :

«يا أخى إنى لا كلت ولا شربت » .

أو « يا أخى إنى ما كلت وما شربت » .

ولا تستعمل «لا» فى نفى الفعل غير المعطوف إلا فى عبارة واحدة هى « لا أدرى » التى يمكن أيضاً أن تـكون « ما أدرى » .

ولعل « لا أدرى » استعمال متأثر بالعربية الفصحى .

وتستعمل «لا» و «ما» للنفى والنهى وتكون قبل الفعل مثل :

« لا تتكلم » أو « ماتتكلم »

وعلى سبيل الاستطراد نشير إلى ظاهرة طريفة وهى سقوط النون(١) من صيغة الفعل المتصل بواو الجماعة أو ياء المخاطبة فى حالة النهى وهذه هى استمرار للظاهرة نفسها فى العربية الفصحى ، مثل :

الإثبات	«تروحون»	و	«تروحين» .
النهى	«لاتروحو»	و	«لا تروحى» .
أو	« ما تروحو »	أو	«ما تروحى» .

النفى فى جملة القسم :

فى جملة القسم تستعمل « ما » لنفى الاسم بجميع أنواعه وذلك مثل :

النفى بدون قسم	النفى مع القسم
« مو محمد ولا على »	« وداعتك ما محمد ولا على »
« مو آنى »	« وداعتك ما أنى »
« مو موجود »	« وداعتك ما موجود»
أو «ماموجود»	

الاستفهام والنفى :

يقصد به نوع من الاستفهام فى العراقية يكون باستعمال أداة النفى فى نهاية الجملة الخبرية ، ومدلول هذا الاستعمال شبيه بالاستفهام الإنكليزى Isn'tit وهو معنى يترجم فى العربية بالعبارة « أليس كذلك » ! .

ومثال ذلك فى اللهجة العراقية :

هذا المصرى مو ؟ أو هذا المصرى غير ؟

---

(١) تسقط النون أيضا عند اتصال الكلمة المنتهية بالواو والنون أو الياء والنون بالضمائر المتصلة مثل « يأكلوه » و « شايفيه » .

أو هذا المصرى ما ؟ (فى لهجة الموصل) .

* * *

بعد هذا العرض المختصر نجمل ما حدث فى لهجة بغداد من تطور فيما يأتى :

١ — التخلص من ألفاظ النفى التى تستعمل فى الفصحى وحدات فى النظام الإعرابى كما حدث فى المصرية .

٢ — تركيب أداة نفى جديدة من «ما» وضمير المفرد المذكر الغائب كما حدث فى المصرية وهذه الأداة هى «مو» .

٣ — استعمال أداة النفى متأخرة ومستقلة عن الجملة السابقة على النموذج المصرى «مو» المشار إليه وهذا تطور انفردت به العراقية .

٤ — استعمال الألفاظ الثلاثة المشار إليها (ما — مو — لا) وفق معين كما حدث فى المصرية .

٥ — تأثر النفى فى العراقية كما هى الحال فى المصرية بالقسم والعطف حيث يؤثر كل منهما على طريقة استعمال أدوات النفى المشار إليها .

النفى فى اللهجة السورية (١)

حدث فى اللهجة السورية ما حدث فى كل من اللهجتين العراقية والمصرية من سقوط أدوات النفى ذات الأثر الإعرابى فى اللغة الفصحى ومن نشوء أدوات جديدة للنفى هى «مو» و «مال» و «لال» إلى جانب «ما» و «لا» . وهذه الأدوات من الناحية التاريخية على قسمين : أدوات بسيطة وهى «ما» و «لا» وأدوات مركبة وهى «مو» — وهى مثل «مو» العراقية فى أنها مركبة من «ما» وضمير الغائب المفرد المذكر — و «مال» — وهى مركبة من «ما» و «لا» — و «لال» وهى مركبة من «لا» و «لا» .

وتستعمل هذه الأدوات على النحو الآتى :

---

(١) أخذنا المادة التى سنعرضها عند الحديث عن اللهجة السورية عن صديقنا الدكتور نذير حجار طبيب الأسنان بدمشق .

١ — نفى الفعل :

ينفى الفعل بوقوعه بعد « ما » مثل « ما أكلت » .

إذا عطف فعل منفى على فعل منفى آخر استعمل لنفى الأول « ما » ولنفى الثانى « لا » مثل :

« ما إجا ولا راح » .

ينفى الفعل المسبوق بأداة الاستقبال « بلا » وتكون حركة « لا » قصيرة مثل « لحيا كل » (أى لن آكل) واللام المفتوحة فيها للنفى والحاء للاستقبال و « با كل » صيغة المضارع وفيها باء كباء الاستمرار فى المصرية .

وقد تستعمل فى هذه الحالة صيغة الضمير منفياً قبل الفعل مثل « مالى لحباكل » (أى أنا لن آكل) .

و « مالى » نفى للضمير « أنا » كما سنذكر تفصيلا .

٢ — نفى الضمير :

ينفى الضمير باستعمال « مو » فى مثل : هادا موانت .

إذا تكرر ضميران بالعطف نفياً بلا قبل كل منهما مثل :

« لا أنا ولا أنت » .

تتركب أداة النفى « ما » وأداة النفى « لا » وتستعمل الصيغة المركبة منهما « مال » لنفى الضمائر على النحو الآتى :

أنا	مالى	نحن	مالنا
أنت	مالك	أنتم	مالكم
أنت	مالك		
هو	مالو	هن	مالن
هى	مالا		

وتستعمل هذه الصيغة المركبة على النحو الآتى :

(ا) لنفى الجملة الاسمية وتتوسط الاسمين اللذين يكونان الجملة على هذا النحو :

أنا مالى نايم	نحنا مالنا نايمين
انت مالك نايم	أنتم مالكم نايمين
انت مالك نايمه	
هو مالو نايم	هن مالن نائمين
هى مالا نايمه	

والمعنى « أنا لست نائماً » « أنت لست نائمة » الخ [١] .

(ب) لنفى الفعل المستقبل كما سبق مثل :

مالى لحباكل = أنا لن آكل .

(ج) تستعمل فى النفى المتكرر بالعطف على هذا النحو :

أنا مالى وا كل ولاشارب = أى لست آكلا أو شارباً .

وفى هذه الحالة يمكن استعمال صيغة مركبة من « لا » مكررة مع الضمير فتكون « لالى » « لا لك » الخ مثال :

هادا لالو لا محمد ولا على = ليس هذا محمداً أو علياً :

ينفى الاسم الجامد والمشتق بالأداة « مو » فى غير ما أشير إليه من حالات مثل :

هادا مو نايم .

هادا مو محمد .

---

(١) يمكن أن يكون الاسم الثانى فى هذا التركيب جامداً مثل « أنا مالى على » أى « لست علياً » وليس اسمى عليا .

وتستعمل « مو » أيضاً لنفى الجار والمجرور فى مثل الجملة :

هادا مو فى البيت .

النفى فى اللهجة الأردنية (١)

تمثل لهجة عمان مجال التقاء بين اللهجة المصرية من ناحية والسورية والعراقية من ناحية أخرى، فهى تستعمل الطريقة التى تتبعها المصرية فى النفى كما تستعمل طريقتها الخاصة التى تشبه إلى حد ما الطريقة السورية والعراقية ، على ما سنرى .

أولا — تستعمل لهجة عمان « ما » واللاصقة « مش » لنفى الفعل والضمير والجار والمجرور كما تستعملها المصرية مثل :

« ما ضربتش » و « مانش جاى » و « مافيش » كما تستعمل الأداة « مش » المصرية التى سبق ذكرها مثل : « مش واكل » .

ثانياً — تستعمل « ما » لنفى الفعل مثل « ما أكل » والفعل هنا ماض ومثل « ما يضرب » والفعل هنا مضارع .

ثالثاً : تستعمل « لا » لنفى الأسماء المتعاطفة مثل :

« لا محمد ولا على » .

كما تستعملها لنفى الأفعال المتعاطفة مثل :

« لا سمعت ولا فهمت » .

وقد تستعمل « ما » لنفى الأول من الفعلين المتعاطفين مثل : « ماسمعت ولا فهمت » .

رابعاً — فى حالة القسم لا يجوز استعمال « ما » واللاصقة « ش » بل تستعمل « ما » وحدها كما رأيت فى المصرية مثل :

« والله ما أكلت » .

---

(١) يقصد بها هنا لهجة عمان وقد أخذت المعلومات الواردة هنا من السيدة سهام كمال وهى مواطنة أردنية من عمان وتعيش فى بغداد منذ ثلاث سنوات .

النفى فى اللهجة السودانية

حدث فى لهجة السودان ـ منطقة أم درمان ـ ما حدث فى لهجة الموصل بالعراق فصار النفى فيها إلى وضع لا يستعمل فيه من ألفاظ النفى سوى «لا» و «ما».

وتستعمل «لا» فى الإجابة بالنفى عن سؤال مثل :

س ـ أنت سافرت ؟

ج ـ لا .

أما «ما» فتستعمل لنفى جميع أنواع الكلمة من أفعال وأسماء أو ظروف وذلك مثل :

أنا ما ريد ـ هو ما موجود .

ولكن فى النفى بما ظاهرة تستحق التسجيل ، إذ يمكن أن يأتى بعدها ضمير متصل يكون منفيا بها ، وفى مثل هذا التركيب يتقدم عليها اسم أو ضمير منفصل يكون صدر الجملة . وبهذا يكون التركيب على النموذج الآتى :

المسند إليه (ضمير أو اسم ظاهر) + ما + ضمير متصل + المسند .

أمثلة :

مفرد	جمع
متكلم مذكر :	
أنا مانى تعبان	نحنا مانا تعبانين
متكلم مؤنث :	
أنا مانى تعبانه	نحنا مانا تعبانات

مخاطب مذكر :

اتَّ ماك تعبان اتُّ ماكم تعبانين

مخاطب مؤنث :

اتِّ ماكى تعبانه اتَّنْ ماكِن تعبانات

غائب مذكر :

(ا) اسم ظاهر : الولد ما هو تعبان الأولاد ماهم تعبانين
(ب) ضمير : هو ماهو تعبان هم ماهم تعبانين

غائب مؤنث :

(ا) اسم ظاهر : البنت ماهى تعبانه البنات ماهن تعبانات
(ب) ضمير : هىَّ ماهى تعبانه هِنَّ ماهِن تعبانات

* * *

هذا استعراض لنظم النفى فى العربية الفصحى وعدد من اللهجات الحديثة المعاصرة ، نستطيع بعده أن نخرج بالنتائج الآتية :

(أولا) النفى فى العربية الفصحى ليس نظاما نحويا ولكنه دلالة تستفاد من عدد المفردات .

(ثانياً) بعض أدوات النفى وحدات فى نظام نحوى يسمى « نظام الإعراب » .

(ثالثا) يعتبر النفى بلا التى للجنس والنفى بزيادة حرف الجر (الباء ومن) فى بعض التركيبات نفيا نظاميا لا قاموسيا حيث أن استعمال هذين الحرفين الزائدين، واستعمال « لا » مع بناء اسمها على الفتح أمران لا يتحققان إلا مع النفى. وبهذا ترتبط دلالة النفى بصفة تركيبية فى الجملة .

(رابعاً) انقرض نظام الحالات الإعرابية فى اللهجات الحديثة . وبانقراض هذا النظام انقرضت الألفاظ التى كانت تعتبر وحدات فيه .

ولما كان من بين هذه الوحدات ألفاظ دالة على النفى فقد انقرضت هذه الألفاظ فى اللهجات الحديثة كما رأيت فى العرض السابق .

(خامساً) استحدثت اللهجات الحديثة ألفاظا جديدة للنفى ، وهى ألفاظ مركبة من « ما » و « هو » والشين فى المصرية ، و « ما » و « هو » فى السورية والعراقية والأردنية ، و « ما » وباء الجر الزائدة فى السعودية[١] و « ما » و « لا » والضمير ، و « لا » و « لا » أخرى والضمير فى السورية .

(سادساً) أصبح النفى فى بعض هذه اللهجات الحديثة نظاما تركيبيا بعد أن كان فى العربية الفصحى دلالة قاموسية .

---

(١) انظر الهامش رقم (١) ص ١٢٥ .